بمناسبة ذكرى الأندلس الإسلاميّة

رثاء الأندلس

جديد

على

ألسنة شعرائها

اختيار وتحقيق وتقديم

الدكتور ظهور أحمد أظهر

الأستاذ بقسم اللغة العربيّة - جامعة پنجاب

الطبعة الاولى

١٩٩٢م — ١٤٠٢هـ

من مطبوعات المجمع العربي الباكستاني

Marfat.com

Marfat.com

بمناسبة ذكرى الأندلس الإسلاميّة

رثاء الأندلس

على

ألسنة شعرائها

اختيار وتحقيق وتقديم

الدكتور ظهور أحمد أظهر

الأستاذ بقسم اللغة العربيّة - جامعة بنجاب

الطبعة الاولى

١٩٩٢م — ١٤٠٢هـ

من مطبوعات المجمع العربي الباكستاني

Marfat.com

فهرس الكتاب

الموضـــوع	رقم الصفحة
المقدمة	
وقال أبو عامر ابن شهيد الأندلس يبكى قرطبة ويرثى أهلها	
وقال الإمام ابن حزم يندب قرطبة نثراً وشعراً	
وقال الفقيه ابن العسال يبكى بربشتر	
وقال بعضهم يبكى قرطبة	
وقال الآخر في نفس المعنى	
وقال أبو إسحاق ابن خفاجة الأندلس يندب بلنسية	
وقال الأستاذ أبو عبدالله محمد بن عبد الرحمن البلنسى	
وقال أبو المطرف ابن عميرة يبكى بلنسية ويرثى أهلها	
ومن رثاء بلنسية قول ابن الأبار البلنسى	
ومن رثاء طليطلة قول ابن العسال اليحصبى	
ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة ويرثى أهلها	
وقال ابن حمديس الصقلى يرثى ابن عباد الإشبيلى	
ومن ذلك قصيدة ابن عبد الصمد يبكى على قبر ابن عباد الإشبيلى	
ومن روائع المراثى الأندلسية قول ابن عبدون اليابرى	
قصيدة أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس	
وقال بعضهم يرثى المدن الأندلسية	
ميمية ابن العربى العقيلى فى رثاء غرناطة	
ومن رثاء غرناطة قول الشيخ الدقون	
وقال بعضهم يندب المسلمين المضطهدين بعد سقوط غرناطة ويستغيث بالسلطان أمير المؤمنين بايزيد خان العثمانى	

Marfat.com

Marfat.com

بســـم الله الرحمن الرحـــيم

المقدمة

هذا هو عام الأندلس الإسلامية على ما أعلنته الأمة الإسلامية - شعوباً وحكومات ومنظمات على نطاق عالمى شامل - فقد مضت أو كادت أن تمضى خمسة قرون على نهاية الحكم الإسلامى فى الأندلس وسقوط دولة غرناطة الناصرية على أيدى الأفرنج وجلاء المسلمين عن الأندلس نهائياً، وذلك قبل قليل من نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وقد كان ذلك حدثا فظيعا وخسارة كبيرة ليس للإسلام وحده بل للموكب الحضارى البشري كذلك وهذا ما جعل العالم البشرى عامة والعالم العربى الإسلامي خاصة يجدد ذكرى الحكم الإسلامى فى الأندلس وما تركه من آثار ثقافية وحضارية مجيدة فى التاريخ البشرى عامة وتاريخ أوربا خاصة والتاريخ الإسلامى على وجه أخص.

وتجديدا لذكرى الأندلس الإسلامية وتخليدا لأمجادها الفاخرة وتقديرا لخدماتها الجبارة فى تقدم العلوم والأداب ورقى الثقافة والحضارة فى أوربا النائمة الغافلة فى وقتها فإننا نقدم هذه المجموعة المتواضعة من رثاء الأندلس الإسلامية على ألسنة شعرائها لكى تكون موعظة وذكرى وتعزية وسلوى لكل قلب نبيل عطوف سليم.

إن هذه المجموعة المتواضعة إن مثلت شيئا فإنما تمثل مآسى أمة كانت قد قامت بدورها البناء وأفادت ونفعت الخلق ثم لاقت نهايتها المؤلمة المؤسفة على أيدى أعداء الحضارة والعلم فى وقتهم من الجهلة القساة المتعصبين كما أنها تمثل مصير أمة كانت قد نسيت أو تناست نواميس القدرة الربانية وسنة الله فى خلقه من دولة الأيام بين الناس وأن الوحدة حياة وأن الانقسام ممات «وأن تلك الأيام نداولها بين الناس»!

وقد دخل الإسلام وأهله إلى الأندلس قبل نهاية القرن الهجرى الأول (فى بداية القرن الميلادى الثامن) ثم تم جلاء المسلمين عنها بعد ثمانية قرون وذلك قبل نهاية القرن الخامس عشر الميلادى (فى النصف الأخير من القرن الهجرى التاسع) والواقع أن تاريخ الإسلام والمسلمين فى تلك البقعة من القارة الأوربية منذ الفتح الإسلامي إلى جلاء المسلمين عن الأندلس نهائيا، قد كان أكبر مأساة وأفظعها قد عرفها التاريخ الإسلامي على اختلاف الأماكن والبلدان التى دخلها الإسلام والمسلمون منذ فجر الحراء إلى يومنا هذا.

إن هذه المأساة التاريخية لمأساة درامية بحوادثها المتتالية ووقائعها التلقائية بمعني الكلمة فإن الستار يرفع فيبدأ الفصل الأول من هذه المأساة الإسلامية الكبرى بالفتح الإسلامى للأندلس على يد القائد الإسلامى الفذ طارق بن زياد البربرى وسيده موسى بن نصير- رحمهما الله تعالى- وينتهي هذا الفصل الأول أيضا بنهاية مؤسفة مؤلمة جدا حيث نرى أن جبال برانس تسد المد الإسلامى وتحول دون زحف الجيوش الإسلامية المجاهدة أولا ثم تقف الأقدار فى سبيل ما كان يعتزم عليه القائدان الإسلاميان طارق وموسى من استمرار الزحف المقدس إلى أعماق أوربا فى مشارقها ومغاربها فيتم القبض على طارق فيما قيل أو يباغتهما الأمر الرسمى من الخليفة بالسفر إلى دمشق حيث يقابلان مقابلة سيئة ثم يلاقيان نهايتهما المؤلة على أيدى الزمان الغادر وأبنائه القساة الظالمين!

وأما الفصل الثانى بمشاهده الطويلة المتنوعة فهو يبدأ بدخول صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية الأموى الداخل إلى الأندلس وتغلبه على الأمراء والزعماء من العرب والبربر المتقاتلين المتناحرين وقهره لمعارضتهم له ثم سيطرته الكاملة على بلاد الأندلس كلها ثم يستمر هذا الفصل ويتطور بمشاهده المتنوعة الرائعة حتى ينتهى بنهاية الخلافة الأموية فى الأندلس ثم تتعدد الفصول ويختلف أبطالها من ابن أبى عامر وحروبه مع معارضيه وأعدائه وانتصاراته عليهم جميعا إلى دول ملوك الطوائف فى ربوع الأندلس المختلفة ثم دولة المرابطين ثم دولة الموحدين وأخيرا الدولة الناصرية فى غرناطة وسقوطها على أيدى الأفرنج وأما الفصل النهائى والأخير من هذه المأساة الإسلامية الكبرى فهو جلاء المسلمين (وليس جلاء الإسلام كما ظن الأفرنج ويظن الناس!!) عن الأندلس ثم تشريدهم وطردهم واضطهادهم على أيدى الكنيسة المسيحية ومحاكمها التفتيشية الظالمة القاسية! وأغرب الأشياء وأهولها أن كل فصل من بين هذه الفصول المتعددة المتنوعة ينتهى كمأساة جديدة مستقلة فكأن مأساة الأندلس ليست بمأساة واحدة ذات فصول متعددة وإنما هى عبارة عن مآسي متعددة مختلفة تتشابه وتتلو بعضها البعض وتنضم إلى مأساة كبرى هى تاريخ الإسلام والمسلمين فى الأندلس منذ الفتح الإسلامى إلى جلاء االمسلمين عنها نهائيا!

ولكن هذه المأساة الكبرى رغم هولها الشديد وخسائرها الفاضحة، تنفرد في انتهاجها العلمى والأدبى كما أنها تمتاز بالكثير من الجوانب الحضارية والثقافية التى تبقى خالدة على وجه الزمان ولن تزال تتلألأ فى جبين التاريخ تلألؤ النجوم فى كبد السماء إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إن دور المسلمين الأندلسيين فى خدمة العربية وآدابها ونهضة الحضارة الأوربية وتقدمها حقيقة

Marfat.com

ناصعة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها فلولا المسلمون الأندلسيون لما ورثت العربية آدابها المجيدة الواسعة وعلومها الرائعة الجمة ولتأخرت النهضة الأوربية الحديثة كما أنهم لو مكثوا فى الأندلس حاكمين لها واستمروا بها فى خدمة العلم والثقافة والحضارة لاستنارت أوربا القديمة النائمة المظلمة فى أقل وقت وأسرعه ولتعجلت نهضتها الحديثة ولتسارع الموكب الحضارى الذى يبهر العيون اليوم! وهذا ليس ادعاء كاذبا أو كلاما فارغا، وإنما هى حقيقة ملموسة يعترف بها الباحثون المسملون والأجانب على السواء، هؤلاء الباحثون العادلون المنصفون الذين تناولوا تاريخ المسلمين الأندلسيين ودورهم البناء المثمر فى خدمة الثقافة والحضارة لبلاد الأندلس خاصة ولبلاد أوربا النائمة فى وقتها على وجه عام فهذا هو المؤرخ العلامة والأديب النابغة الأستاذ أحمد حسن الزيات المصرى يعلق على دور المسلمين الأندلسيين ومكانتهم فى التاريخ الثقافى والحضارى قائلا:

«ولو طال على الأندلسيين الأمد فى خدمة الحضارة وتعاقبت أطوار الرقى على اللغة وآدابها، لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهوجو ولامرتين وأضرابهم ولكن فاجأهم الانقسام وأهمهم الخصام فتصدعت عصاهم وانقضت عراهم ونضبت قرائحهم وامحلت عقولهم وذهبوا كأمس الدابر سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا»

وأما ما قاله دوزى المؤرخ الأسبانى العلامة وما أشاد به الأستاذ حتى وغيرهما من علماء أوربا المنصفون والمستشرقون الأفاضل فذلك كثير جدا ومعلوم متعارف بين الناس ولسنا فى حاجة إلى إعادته وتكراره.

ومما لا شك فيه ولا ريب أن زوال الأندلس الإسلامية يرجع إلى ما كانت قد أصيبت به منذ فتحها على المسلمين، وهو داء المعاداة والخلافات ومرض التشاجر والتناحر من أجل الوصول إلى كرسى الحكم أو الإبعاد عنه، والفرقة العنصرية وعيش اللهو، وقد استغل العدو المتربص الدوائر بالإسلام والمسلمين هذا الوضع المتقلقل والفوضى الداخلى استغلالا شاملا، فجعل يضرب البعض بالبعض ويحرك الدمى من وراء الستائر والحجب، ولعلماء الأندلس ورجال الدين مؤلفات خاصة بانحلال الأندلس الإسلامية وزوالها وانقراض دولتها ومنهم الشيخ أبو يحى بن عاصم صاحب الشرح على تحفة أبيه الذى ألف كتابا عن ذلك وسماه (جنة الرضى فى التسليم لما قدرالله وقضى) وهو كتاب عجيب جد غريب على حد تعبير أحمد المقرى الذى رآه بتلمسان ونقل منه بعض النصوص ومنها قوله :

«من استقرأ التواريخ المنصوصة وأخبار الملوك المقصوصة علم أن النصاري دمرهم الله لم يدركوا

Marfat.com

فى المسلمين ثأرا ولم يرحضوا عن أنفسهم عارا ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارا ولم يستولوا عليها بلادا جامعة وأمصارا إلا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف واجتهادهم فى وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف ...»

وأما الآداب العربية الواسعة والعلوم الإسلامية الجمة التى أنتجتها عباقرة الأندلس الإسلامية خلال الفصول المتعددة المتنوعة من تلك المأساة الكبرى شعراً ونثراً فهى متنوعة الأطراف والجوانب ومتعددة الأنواع والأقسام إنها لأحداثا تاريخية رائعة مروعة تهز النفوس وتبكيها وتثير العواطف وتهيجها ومن ذلك رثاء الأندلس على ألسنة شعرائها.

إن هذه المراثى العربية الأندلسية نوع مستقل بين المراثى العربية الكثيرة المتنوعة من الخنساء إلى شعراء مأساة بيروت الفلسطينية اليوم تلك المراثى التي تزخر بها المكتبة العربية على اختلاف الأزمنة والأقاليم والدول والعهود، إلا أن هذا النوع المستقل من الرثاء العربى هو رثاء المدن المغصوبة والبلاد المحتلة والدول الساقطة على أيدى الأعداء الذين قهروها وتغلبوا على أهلها فدخلوها ونهبوها ودمروها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وتلك هى سنة الله فى خلقه عبر العصور والأحقاب على أرضه المعمورة **ولن تجد لسنة الله تبديلا** !

نعم! إن هذا النوع من الرثاء العربى نوع مستقل ونادر فى الوقت نفسه وعلى الأقل فى الآداب العربية القديمية فبينما يوجد الكثير منه فى الأدب العربى الأندلسي قلما نجد فى الآداب العربية الشرقية القديمة فإذا استثنينا منه ما قاله بعض الشعراء في الملوك الساقطين أو الأسر المالكة الهالكة فإننا لن نجد رثاء المدن والبلاد الساقطة المغصوبة فى الشرق العربى الإسلامي إلا قليلا نادراً جدا وذلك مثل ما قاله بعضهم عن مدينة السلام بغداد:

لسائل الدمع عن بغداد أخبـــار ... فما وقوفك والأحباب قـد ساروا

يا زائرين إلى الزوراء لا تفـدوا ... فما بذلك الحـــمى والـدار ديـار

تاج الخلافة والربع الذى شـــرفت ... به المعـــالم قد عفـاه إقـفـار

لعطف البلى فى ربعه أثـــــر ... وللدموع على الآثار آثـــــار

فقد سقط تاج الخلافة العباسية على أيدى الطاغية المغولى الذى دمر مدينة السلام وخربها وقتل أهلها وجعلهم أذلة ولكن لم يبك على بغداد وعلى أهلها شاعر رغم أن سقوط الدولة العباسية قد كان كارثة كبري بالنسبة إلى الأمة الإسلامية والحضارة البشرية وقد غيرت مجري التاريخ حتى أنه لم يعد

للمسلمين مركز ركين يأوون إليه ولم يعد للخلافة الإسلامية مكان فى أرض الله تستقر فيه، وقد كان من حق بغداد ومن واجب أهلها من الشعراء خاصة والشعراء المسلمين عامة أن يموتوا حزنا وبكاء على مدينة السلام ولكننا لم نسمع بصوت ارتفع راثياً باكياً على سقوط مدينة السلام وخرابها كأن لم يحدث شئ بالنسبة إلى هؤلاء الشعراء، المتفننين المتكسبين بشعرهم فقد بخلوا على مدينة السلام بغداد حتى بقطرات دموعهم ولم يوفق منهم أحد في رثائها إلا ما شاء الله من أمثال الشيخ مصلح الدين السعدى الشيرازى من شعراء الفارسية والذى بكى على بغداد وعلى ضياع ملك أمير المؤمنين المستعصم بالله العباسي، فهو الوحيد الذى قام بواجبه حق قيام نحو مدينة السلام وعوض عما فات الشعراء العرب من حق بغداد عليهم! فيا للأسف ويا للخسارة! لم يشعر أحد بما خسرت الأمة الإسلامية في وقتها! ورحم الله إقبال الذى يقول:

وائي نا كامى متاع كاروان جاتـــارها كاروان كى دل سى احساس زيان جاتارها

ومعناه: يا له من هزيمة! فقد خسرت القافلة متاعها لا بل أكبر هزيمة وأهولها هى أن قلوب القافلة قد فقدت الشعور بهذه الخسارة الفادحة الهائلة!

إن هذا النوع من الرثاء يوجد له نظائر فى الشعر الأردى فمن أجود المراثى الأردية وأروعها ما قاله الميرزا (داغ) الدهلوى وهو يرثي مدينة (دهلى) حين سقطت على أيدى الإنجليز أو ما قاله تلميذ (داغ) العلامة محمد إقبال وهو يرثى صقلية العربية الإسلامية وذلك حين عاد من أوربا بعد إكمال الدراسات العليا بها فقد مر على متن السفينة البحرية بساحل صقلية فألقى نظرة عابرة على الجزيرة ومشاهدها الطبيعية الجميلة ومناظرها الخلابة فإذا به يتذكر العرب المسلمين الذين حكموا الجزيرة إلى العديد من القرون وتركوا بها آثار مجيدة وذكريات خالدة فهيجت نفس الشاعر وعواطفه الإسلامية ومشاعره الإنسانية النبيلة وإذا به يبكي على الحضارة العربية الإسلامية بها وقد أسهبنا الحديث عن ذلك فى كتابنا نظرة على رثاء صقلية» باللغة الأردية.

ومن مرثية إقبال هذه التى رثى بها صقلية قطعة يخاطب بها صقلية العروبة والإسلام وآثارها الخالدة المجيدة وهى أيضا تدل على معلومات إقبال عن آداب اللغات الإسلامية مثل العربية والفارسية والأردية بالإضافة إلى اهتمام الشاعر بتراث الإسلام وماضيه المجيد ومجده السليب والقطعة وترجمتها كما يلى:

ناله کش شیراز کا بلبل هوا بغداد پـــر　　داغ رویا خون کی آنسو جهان آباد پـــر
« آسمان نی دولت غرناطة جب برباد کـی　　ابن بدرون کی دل ناشاد نی فریاد کـــی
غم نصیب اقبال کو بخشاکیاما تم تـــرا　　چن لیا تقدیر نی وه دل که تها محرم ترا

وترجمتها: «إن بلبل شیراز (مصلح الدین السعدی) کان قد بکی علی بغداد ودمارها کما أن الشاعر(داغ) الدهلوی کان قد سکب دموع الدم علی مدینة جهان آباد (ای دلهی) وخرابها ، وأما ابن بدرون (یقصد ابن عبدون الیابری وابن بدرون هو شارح قصیدة ابن عبدون هذا ولم یکن شاعرا) فقد استصرخ من أعماق قلبه الحزین حین دمرت السماء غرناطة وأتت علی دولتها الناصریة :

أما أنت یا أرض صقلیة فإن البکاء علیك والرثاء لك کان قد قدر فی لوح المقادیر لإقبال البائس الحزین وذلك لأن الأقدار قد اختارت قلبا عطوفا کان قد أدرك مصابك العظیم المؤلم!».

ولکن هذا النوع من الرثاء- رثاء المدن الساقطة المدمرة علی أیدی الأعداء أو تلك التی أصابها آفات طبیعیة أو مکتسبة بانقسام أهلها وخلافاتهم فأتت علیها أو جرت علیها ویلاً عظیماً مما جعلها خراباً وصیرتها موعظة وذکری للغابرین ، إن هذا النوع من الرثاء لقلیل جداً في تاریخ شعرنا العربي علی اختلاف الأقالیم والأمصار والعهود والأعصار، وأیضا قلما نجد ذلك فی آداب اللغات الأخری غیر العربیة فیما نعلم، وأما مأساة الأندلس الإسلامیة فقد ترکت تأثیرا فوق المتصور فی نفوس أهلها من العلماء والأدباء والشعراء وأصیبت البلاد بهزات عسکریة وسیاسیة عنیفة وضربات قاضیة من الداخل والخارج ، فمرة من قبل الأعداء المتآمرین الذین کانوا یتربصون بها الدوائر ، وأخری من قبل أهلها الذین کانوا یتقاتلون ویتناحرون ویعادي بعضهم البعض دائماً .

إن هذه الهزات والضربات وما تلاها من الأهوال والمهالك قد أنطقت الشعراء وجعلتهم یقولون تلك القصائد المحزنة المبکیة التی قد أبکت - ولا ولن تزال تبکی - الأجیال المسلمة القادمة طوال العصور علی ذلك المصاب المخزی الألیم والخسارة الفادحة الکبری من سقوط الأندلس الإسلامیة وتدمیرها علی أیدی هؤلاء الجهلة المتعصبین الأغبیاء!

إن الدولة الأمویة الأندلسیة قد کانت صرحاً شامخاً من العلم والحضارة والمجد والفخار وکفاك شاهداً علی ذلك ماترکته من الآثار الخالدة علی أرض أسبانیا وفی صفحات التاریخ وما وصفه الباحثون وقدروه حق تقدیر ولکن القضاء علیها کانت خسارة کبری لیس للإسلام وحده بل للبشریة کلها ، لا شك أن من الأسباب التی قوضت بناء هذه الدولة قد کان من بینها الفرقة العصبیة بأنواعها

Marfat.com

والمطامع الشخصية والمغامرات الفردية مع سلطان اللهو وعيش البذخ والإسراف ولكن السبب الأساسي الأصيل هو ما كان يدبره العدو ويتربص الدوائر فقد كان انهيار الخلافة الأموية الأندلسية في أواخر القرن الرابع الهجرى نذيراً بالنهاية المؤسفة المحتومة حيث أخذت الأمة الإسلامية الأندلسية تتقلب في المعارك الدامية والمحن الطاحنة وقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة على أنقاض تلك الدولة العظيمة الشامخة ولم تستطع هذه الدول الطائفية ولا التي تلتها من المرابطية والموحدية والناصرية أن تقف فى وجه السيل الجارف من الضغط المسيحي والاعتداء الأفرنجى الذى تمكن أخيراً من القضاء على دولة الإسلام الشامخة وحضارته اللماعة ومدنيته الفاخرة وتراثه الغالى من المكتبات الزاخرة جواهر العلوم ولآليها، تلك التى ستبقى غرة فاخرة فى جبين التاريخ الإسلامى وسبة وعارا فى جباه الأفرنج المتعصبين الأغبياء وسيبكى عليها أجيال البشر وتندبها إلى آخر الدهر!

إن أول هزة أصيبت بها الأندلس الإسلامية هى ما تسمى بفتنة البربر والتى هزت قرطبة عاصمة الدولة الأموية وصرح الحضارة الإسلامية المتنورة فى وقتها وقد كان من آثار هذه الفتنة التخريب والدمار الذى أصيبت بها مدينة قرطبة على أيدى أدعياء الإسلام نفسه ولكن أكبر خسارة وأهولها هى انفكاك قواعد النهضة العلمية والأدبية وانهدامها .

ومن أبشع ما تركته هذه الفتنة هو نهب المساجد وتحريقها على أيدى هؤلاء الأدعياء الذين يشبهون فى قساوتهم وغبائهم هؤلاء القرويين من شرقى الهند والذين نهبوا عاصمة (دهلى) ودمروها وقد ذكرهم وصورفظائعهم الشاعر الأردوى الميرزا داغ الدهلوي رحمه الله فيما رثى به عاصمة الإسلام فى شبة القارة.

هذا ما أصاب المدن الإسلامية الأندلسية بين حين وآخر على أيدى المسلمين أنفسهم ولكنه يختلف كثيراً مما أصابها على أيدى جهلة الأفرنج وأغبيائهم ويكفى أن نقتبس هنا ما قاله أحد الأوربيين أنفسهم معلقا على الخسارة التى تكبدها الأسبان على أيديهم بالقضاء على الحكم الإسلامى والحضارة الاسلامية فى الأندلس وهو الأستاذ (ستانلى) الذى يقول : «لكن الأسبان لم يدركوا أنهم قتلوا الإوزة التى كانت تبيض بيضة من ذهب كل يوم، فقد بقيت أسبانيا قرونا تحت الحكم العربى وهى مركز المدنية والثقافة ومنبع العلوم والفنون والآداب وقبلة العلماء والطلاب المتوافدين ومصباح الهداية والنور ولم تصل أية مملكة فى أوربا إلى ما يقرب منها فى ثقافتها وحضارتها ولم يبلغ عصر فرديناند وإيزابلا المتلألئ ، ولا امبراطورية شارلمان الخامس، الأوج الذى بلغه

Marfat.com

المسلمون فى الأندلس ولقد بقيت حضارة المسلمين إلى حين خروجهم من أسبانيا وضاءة لامعة ولكن ضوءها كان يشبه ضوء القمر الذى يستعير نوره من الشمس ثم عقب ذلك كسوف قد بقيت أسبانيا بعد ذلك تتعثر فى الظلام؛ وإننا لنحس فضل العرب وعظم آثار مجدهم عندما نرى الآراضى فى أسبانيا مهجورة قاحلة تلك التى كانت أيام المسلمين جنات تجري من تحتها الأنهار تزدهر بما فيها من الكروم والزيتون وسنابل القمح الذهبية ، وعندما نتذكر تلك التي كانت فى العصور العربية مائجة عامرة بالعلم والعلماء، وعندما نحس بهذا الركود العام الذى ساد بعد تلك الرفعة والازدهار...»

وأما مراثى المدن والبلاد الإسلامية فى الأندلس فهى بطبيعة الحال تنقسم إلى القسمين لأن الدمار والخراب الذى أصيبت بها الأندلس وعم بلادها فى الفترات المختلفة تنقسم أيضا إلى القسمين كما مر بنا آنفا وقد كان أحد هذين القسمين هو نتيجة الإعتداء الأفرنجى مرة بعد أخرى و أما القسم الثانى من الدمار والخراب أو القتل والنهب فيرجع إلى ما جره المسلمون بأيديهم على أنفسهم فقد كانت المدن عامرة هادئة والحياة بها رغيدة آمنة وفى قمتهامدينة قرطبة عاصمة الأمويين بالأندلس، وظل الشعب المسلم الأندلسي يعيش فى ظل العدل والسلام ويغمره الترف والرزق الحسن إلى أن أصيب بداء يصيب الشعوب دائما إذا بطرت معيشتها وبلغ الترف مبلغ البذخ والإسراف وتحول هدفها من الشرف والمجد إلى عيش اللهو والتحاسد والتحاقد الذى يعقبه الشر والفساد والتفرقة والخراب وذلك ما أصيبت به قرطبة العاصمة وتلتها المدن والبلاد الأخرى وبذلك ذهبت ريح الأمة الإسلامية الأندلسية وفتحت عليها أبواب الفتن وتمرد عدوها الأفرنجى الذى كان يتربص بها الدوائر فاجترأ على التكالب عليها وأخذ يكيل لها الضربات واحدة تلو الأخرى حتى جاءت ضربته القاضية الحاسمة فأتت على الدولة الناصرية الغرناطية وبذلك انتهى الحكم الإسلامى فى الأندلس .

ومن غريب الأمر أن هذين النوعين من الدمار والخراب قد أنتج كل واحد منهما نوعا مستقلا ممتازا من المراثى للمدن الأندلسية التى تكثر ويطول ذكرها وتتسع دائرتها وهذان القسمان المستقلان من رثاء المدن الأندلسية يتفقان فى الحياكة أو الاسلوب اللفظى ولكنهما يختلفان فى التعبير العاطفى أو الأسلوب المعنوى، وبعبارة أخرى إن موقف الشعراء الأندلسيين وعواطفهم نحو كل قسم من هذين القسمين للحوادث والكوارث التى جرت الويل على الشعب المسلم الأندلسي وخربت المدن ودمرت الديار تختلف اختلافا واضحا فبينما نرى الشعراء الأندلسيين، الذين يتناولون رثاء المدن التي يرجع دمارها وخرابها إلى الفتن الداخلية وعلى أيدى الفئات المسلمة المتناحرة، يتخذون موقف الناصح

Marfat.com

المتأسف والباكى الحزين المتعاطف فيختارون أسلوبا معنويا كله ألم وتأسف وحسرة مع دعوات خالصة لوحدة الكلمة وانسجام الخطوة إلى أمل ورجاء فى عوددة المياه إلى مجاريها ولكننا نراهم فى الوقت نفسه يرثون المدن والبلاد التى دمرها الأفرنج المعتدون بأسلوب يملأه الغيظ والغضب والحزن المرير والألم الشديد مع العويل والبكاء على العز المنال والمجد السليب والتحريض والحث على الجهاد والنصرة للإسلام والمسلمين ومعاقبة العدو الغاشم والتنكيل به وهذا الفارق أو الاختلاف فى الأسلوبين أمر طبيعى وواضح لا يحتاج إلى دليل.

إن القسم الأول من رثاء المدن التى أصابها الدمار والخراب على أيدى المسلمين أنفسهم فهو قليل نادر ولا يتحاوز القصيدتين أو الثلاث ومنها رثاء قرطبة وإشبيلية وصاحبها ورثاء بطليوس وأصحابها ولرثاء بطليوس وأصحابها واشبيلية وصاحبها موضع آخر يأتى بعد حديثنا عن رثاء قرطبة عاصمة صقر قريش عبد الرحمن الداخل وحفيد أحفاده عبد الرحمن الناصر لدين الله وابنه الحكم المستنصر، تلك المدينة الجميلة الحافلة التى كانت آمنة بعدل القضاء والحكام وعامرة بعلم العلماء والمفكرين وزاخرة بمكتباتها المزدحمة وحضارتها الفاخرة وأناقتها الباهرة... تلك العاصمة الجميلة الحافلة والمدينة العامرة الآمنة قد أصيبت بفتنة البربر بعد أن ضعفت الخلافة الأموية الأندلسية وتفككت وأخذت الدولة العامرية طريقها إلى الانحطاط والزوال وعمت الخلافات الطائفية والعنصرية بين المسلمين من أهل قرطبة، فذالك مما سببت وأثارت الفتنة البربرية الكبري وهي التي فتحت أبواب الفتن والكوارث على الأمة الإسلامية الأندلسية وذهبت بها ريحها وشجعت النصارى على الزحف والهجوم على المدن الإسلامية وهى التي لم تترك مجالا لعودة المياه إلى مجاريها وحتى أن الأندلس الإسلامية لم تستطع أن تستقر وتهدأ بعدها بمعنى الكلمة رغم المحاولات المرابطية والموحدية التى امتدت إلى قرون،تلك الفتنة الكبري والكارثة العظمي جعلت الشعراء يبكون على قرطبة ويرثونها رثاء حزينا مبكيا!

وأول قصيدة في رثاء قرطبة وهى أيضا القصيدة الأولى من بين القصائد المختارة فى رثاء المدن الأندلسية على ألسنة شعرائها والتى تضمها مجموعتنا المختارة هذه هي قصيدة قالها أبو عامرأحمد بن عبد الملك ابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦هـ وهو يبكي على تفرق الجماعة وتمزقها ودمار المدينة وخرابها وذهاب الأحبة وفقدهم ويتأسف على الجنة التى أقفرت وعلى النعيم الذى زال حيث يقول:

يا جنة عصـــفت بها وبأهـــلها ريح النوى فتدمرت وتدمـــروا

آسى عليك من الممات وحق لـــى إذ لم نزل بك فى حياتك نـــفخر

Marfat.com

كانت عراصك للميمم مـــكةً يأوى إليها الخائفون فينـــصروا
يا منزلاً نزلت به وبأهـــــله طير النوي فتفيروا وتنـــكروا

والقصيدة الثانية فى رثاء قرطبة من مجموعتنا هذه هى رائية الفقيه الأديب أبى محمد أحمد بن على ابن حزم الظاهرى ابن وزير آل عامرالأكبر ويسبق القصيدة رثاء نثرى رائع تضمه المجموعة مع رائية ابن حزم الرائعة التى تجمع بين جمال اللفظ وحسن المعنى.

إن ما حل بقرطبة من الكارثة وما أصابها من الدمار قد زعزع بنيان الحكم الإسلامى فى الأندلس وذهبت به ريح الأمة الإسلامية وشجع العدو المتربص بالدوائر على الزحف والهجوم على البلاد والمدن الإسلامية فى الأندلس فبدأت سلسلة من الكوارث وقد انتهت بجلاء المسلمين عن الأندلس نهائيا، وقد كانت أولى تلك الكوارث وأكبرها هولاً وهلما هى كارثة مدينة (بريشتر) تلك التى هزت الأندلس كلها وأثرت فى نفوس المسلمين أبعد تأثير والتى جعلت محدث الأندلس وفقيهها الحافظ ابن عبد البر يصدر منشوراً على لسان أهل بريشتر ويقول منبها ومستنهضا أمة الإسلام بذالك:

«فإنا خاطبناكم مستنفرين وكاتبناكم مستغيثين وأجفاننا قرحي وأكبادنا جرحي ونفوسنا منطبقة وقلوبنا محترقة.. فلو رأيتم معشر المسلمين إخوانكم فى الدين وقد غلبوا على الأموال والأهلين واستحكمت فيهم السيوف واستولت عليهم الحتوف وأثخنتم الجراح وعبثت بهم زرق الرماح وقد كثر الضجيج والعويل ودماؤهم على أقدامهم تسيل سيل المطر بكل سبيل ورؤسهم قدامهم تطير ولا مغيث ولا مجير، وقد صمت الآذان بصراخ الصبيان ونياح النسوان وبكاء الولدان وعلت الأصوات وفشت المنكرات... وما ظنكم معشر المسلمين وقد سيقت النساء والولدان ما بين عارية وعريان قوداً بالنواص إلى كل مكان طورا على المتون وطورا على البطون مقرنين بالجبال مصفدين فى السلاسل والأغلال مقتادين فى الشعور والسبال إن استرحموا لم يرحموا وإن استطعموا لم يطعموا وإن استسقوا لم يسقوا وقد طاشت أحلامهم وذهلت أوهامهم ... ... فيا ويلاه ويا ذلاه ... ... ويا قرآناه ... ... ويا محمداه! ... ... »

وهذه الكارثة الكبرى والنازلة الأولى والمصاب الأليم الفظيع هو الذى أثار مشاعرالعالم الأديب والفقيه الزاهد ابن العسال فقال همزيته المعروفة وندب بها مدينة بريشتر وأهلها ، وصور آلامهم أصدق تصوير وأحسنه وهي قصيدة تضمها هذه المجموعة المختارة وهي أولي المراثي التى قيلت عن المدن الأندلسية الإسلامية التي سقطت على أيدي الأفرنج فدمروها وجعلوا أعزة أهلها أذلة.

Marfat.com

وأما القصيدة التي تستحق أن تحتل المكانة الأولي بين تلك القصائد التي قيلت في رثاء الأندلس الإسلامية على ألسنة شعرائها فهى القصيدة الفريدة الغراء التى جادت بها قريحة الشاعر الوزير أبي محمد ابن عبدون اليابري والتي تحتل مكان الصدارة والقمة الفنية بين المراثى الأندلسية المحزنة المبكية وقد نالت إعجاب الناس في عصره وفيما بعده من العصور وقد سارت بها الركبان وعاشت على وجه الزمان وهى قصيدة رائية قد سماها مؤلفها (كمامة الزهر وصدفة الدرر) وقد تناقلها الرواة وتداولها المنشدون واستحسنها الأئمة الناقدون في الشرق والغرب واختارها المختارون واقتناها المقتنون وقد قام بشرحها أديب الأندلس ومحدثها وخطيبها في وقته العلامة ابن بدرون وقد سماه بـ :« شرح قصيدة ابن عبدون » وهو شرح لطيف ممتع يدل على غزارة العلم وقوة الذاكرة وبراعة المؤلف المتفنن وقد طبع هذا الشرح في مدريد.

ولا يبدأ ابن عبدون قصيدته هذه بوصف الطلول المقفرة أو البكاء المحزن علي ديار الحبيبة المهجورة الخربة فذلك من بلاغة القدم ودأب القدماء من شعراء الجاهلية والإسلام وإنما يبدأ ابن عبدون حديثه المؤلم المفجع بذكر الدهرالغادرالخؤن الذي يفجع البشر بنوازله المفاجئة الهائلة وآفاته الغائلة الهالكة فيعدمهم ويجعل منهم أثرا بعد ما كانوا عيناً فكأن دنيانا هذه ونحن فيها صور وأشباح لا حقيقة لها ولا أصل إذن فلا حزن ولا بكاء على شئ من هذه الصور والأشباح!

وتحتوى رائية ابن عبدون على خمسة وسبعين بيتاً وتنقسم أو قل إننا نستطيع أن نقسمهاإلى أربعة مقاطع : فأما المقطع الأول وهو أيضا مطلع القصيدة فهو يخص الدهر القاسى الغادر المتلاعب بحظوظ الإنسان المسكين وجدوده كما أنه يحوى موعظة وتذكيرا للبشر ينبههم على أن يكونوا دائما على وعي ويقظة فلا تغرهم دنياهم وبهجتها وأن لا يأمنوا شر الليالي وصروفها.

وفي المقطع الثانى ينتقل الشاعر إلي عبر الدهر وغيره وتصرفه وتمكنه من القضاء على دولة بعد أخري قد أنشأها البشر على اختلاف الأزمنة والأماكن فوق هذه المعمورة منذ أبينا آدم إلى اليوم الذي قتل فيه ممدوح الشاعر وابناه ويمضى ابن عبدون يذكر الدول الماضية البائدة فيبدأ بدولة (دارا) الكبير أمبراطور فارس وقاتله الإسكندر اليونانى وينتهى بدولة بني الأفطس أصحاب بطليوس بالأندلس وبطبيعة الحال هذا المقطع الشعرى من القصيدة هو أطول المقاطع وأصعبها على فهم القارئ إذ يأتى ابن عبدون بإشارات موهمة غامضة أشد الغموض وتلميحات بعيدة خفية أشد الخفاء وذلك مما جعل القصيدة ألغازاً أو معميات وعلى القارئ أن يفك هذه الألغاز والمعميات أو يتيه بين غوامض القصيدة وخفاياها، وهنا يتجلي ابن عبدون المؤرخ العلامة والشاعر المتفنن وهنا يلمع فنه وبراعته وعبقريته النادرة.

Marfat.com

وأما المقطع الثالث فهو يخص رثاء ممدوحيه وأولياء نعمته المقتولين من بنى الأفطس أصحاب مملكة بطليوس وما إليها من ملوك الطوائف بالأندلس ، كما أن المقطع الرابع والأخير وهو أقصر المقاطع من القصيدة يحتوي على ما يدعيه الشاعر من جمال قصيده وحسن نظمه من حيث التفوق على غيره من الشعرا ء القدامي والمحدثين ويتنبأ بالحوادث المنتظرة من انتشار قصيدته الرائية وإعجاب الناس بها وإقبالهم عليها وفيه شئ من الافتخار والتعلي الذي لا يخلو من المبالغة والعجب كما لا يخفي .

وأسلوب ابن عبدون الشعرى من نسيج اللفظ وابتكار المعنى إنما هو أسلوب شاعر بليغ قادر على التعبير المعنوي والحياكة اللفظية وهو يجمع بين حسن اللفظ وجمال المعنى كما أنه لا يخلو من تعقيد اللفظ وغموض المعنى وإنه لأسلوب شعري يذكرنا بأسلوب الشعر العربى الرصين عند الشعراء المحدثين في العصرين الأموى والعباسي من أمثال جرير والفرزدق والمتنبى وأبى تمام وأضرابهم كما أنه يمثل العقلية الشعرية الأندلسية التى تنفرد بالاهتمام والإعجاب بالشرق العربي الإسلامى وإهمال المغرب العربي الأندلسى في كل ما تنتجه أو تبتكره أو تؤلفه دائما ، فبينما نرى ابن عبدون يلغز بالحوادث التاريخية في الشرق الإسلامي فيما نظمه من الأبيات الشعرية للمقطع الثاني الطويل من القصيدة نراه يهمل أحداث التاريخ الإسلامي في الأندلس رغم أنه مليء بالحوادث التاريخية الدرامية الرائعة كما أنه حافل بالعبر والمواعظ المؤثرة الأخاذة إذ هو أكبر مأساة في تاريخنا الإسلامى على اختلاف الأقاليم والعصور.

وأما بنو الأفطس أصحاب بطليوس فقد كان مؤسس دولتهم وبانى مجدهم هو أبوعبد الله محمد بن عبد الله المتلقب بالمظفر والمعروف بابن الأفطس وقد كان هذا الرجل العظيم من أحرص الناس على اقتناء الكتب النادرة وقد ألف كتاب «التاريخ المظفرى» فى خمسين مجلدا على غرار عيون الأخبار لأبى محمد ابن قتيبة وقد كانت أيام بنى المظفر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم وكانوا ملجأ لأهل الآداب خلدت فيهم ولهم قصائد شادت بمآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم كما صرح به المراكشي فى المعجب.

وأما صاحب هذه القصيدة الفريدة الغراء فهو أديب الأندلس وشاعرها العلامة أبو محمد عبد المجيد ابن عبدون اليابرى الكاتب الوزير ذو الوزارتين، وكان مولده ووفاته فى مدينة يابرة وكان عمر المتوكل على الله ابن المظفر صاحب مملكة بطليوس من ملوك الطوائف قد استوزره ولم يزل يخدمه فى

Marfat.com

منصبه إلى أن دالت دولتهم وانقرضت مدتهم فى ٤٨٥هـ على أيدى المرابطين فانتقل إلى خدمتهم وكان من الكتاب المترسلين بالأندلس ومن علماء التاريخ والحديث بها وقد أفاده علمه بالتاريخ فى قصيدته الرائية الرائعة التى ترجمت إلى الفرنسية والأسبانية وقد قام بشرحها غير واحد من العلماء الأفاضل ومنهم العلامة ابن بدرون رحمه الله.

وقد كان ابن عبدون اليابرى آية فى الحفظ والذاكرة حتى قيل إن أيسر محفوظاته كتاب الأغانى ورغم هذه الفطنة والذكاء والحفظ والذاكرة وجودة القريحة قد كان غاية فى التواضع والبساطة مع الوقار والاحترام ويروى له حكايات ونوادر في ذلك قد سجل البعض منها صاحب المعجب .

ورغم غزارة الأدب ونباهة القدر قد كان من الشعراء المقلين ولم يثبت له من الشعر إلا النزر اليسير، وكان قد تتلمذ على كبار الأساتذة فى فنون العربية وآدابها من أمثال أبى الوليد ابن ضابط النحوى الشاعر المستجدى بشعره وقد حكي ابن عبدون عن نفسه بأنه كان بين يدى مؤدبه يوما وسنه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة فعن للمؤدب أن قال: «الشعر خطة خسف» وجعل يردد هذا القول فكتب ابن عبدون في لوحه مجيزا لمؤدبه : «لكل طالب عرف» ثم خطرله بيت ثان وهو:

للشيخ عيبة عيبه وللفتى ظرف ظرف!

فنظر إليه المؤدب فقال له: يا عبد المجيد ما الذى تكتب فأراه اللوح فلما رآه لطمه وعرك أذنه وقال له: لا تشتغل بهذا، وكتب البيتين عنده!

ومن جيد شعره على غرار المتنبئ قوله :-

ولا أصالح أيامى على دخـــن ليس النفاق إلى خلقى بمنسـوب
يا دهر إن توسع الأحرار مظلمة فاستثننى إن غيلى غير مقروب
ولا تخل أننى ألقاك منفـــردا إن القناعة جيش غير مـغلوب!

وتتلوها القصيدة الجميلة التى قالها ابن حمديس الصقلى والتي رثى بها الملك الشاعر المعتمد ابن عباد الإشبيلى من ملوك الطوائف وصاحب مملكة إشبيلية بعد سقوطها على أيدى المرابطين والقبض على ابن عباد ونقله عبر البحر وسجنه بمدينة أغمات ومن سجنها بعث ابن عباد قصيدة يستجوب بها ابن حمديس فأجابه بهذه القصيدة الرائية وكان ابن عباد قد استهل قصيدته بقوله :-

غريب بأرض المغربين أسيـــر سيبكى عليه منبر ومحـــراب

فأجابه ابن حمديس الصقلى فاستهل قصيدته بقوله:

جرى بك جدّ بالكرام عثـــور وجار زمان كنت فيه نجيـــر

وفيها يقول لابن عباد:

أغر الأسارى أن يقال محمـــد غريب بأرض المغربين أسير ؟!

ورثاء ابن حمديس لولى نعمته وصديقه ابن عباد لا يساوى رثاء ابن عبدون لولي نعمته ابن الأفطس المتوكل إلا أنه ملئ بشدة الحزن واللوعة وفى نفس الوقت يحمل رسالة التأميل والتفاؤل والتسلية والعزاء كما أنه يصور المبالغة الشعرية حين يقول ابن حمديس:

ولما رحلتم بالندى فى أكفـــكم وقلقل رضوى منكم وثبـــير

رفعت لسانى بالقيامة قـــد أتت ألا فانظروا هذى الجبال تسير

وابن حمديس هو عبد الجبار ابن حمديس الصقلى المولود بجزيرة صقلية والمتوفى فى سنة ٥٣٧هـ بمدينة ميورقة وقد عاش حقبة بمسقط رأسه مخمولا ثم هاجر إلى الأندلس حتى اتصل بالمعتمد الإشبيلى الملك الشاعر ومأوى الأدباء والشعراء فاشتهر ابن حمديس وطار صيته وأخذ يتقلب فى النعم والترف ويمتاز شعره بعفة اللفظ ونبل الفكرة مع كثرة الوعظ والزهد فى الدنيا والشكوى من الناس والثورة على النفس.

إن هذا النوع من الرثاء - رثاء الملوك الساقطين والأسر المالكة الهالكة - وإن كان لا يتصل بهدفنا ولا يهمنا كثيرا فى هذه المجموعة ولكننا ما دمنا قد اخترنا رائية ابن عبدون الرائعة فى بنى الأفطس أصحاب بطليوس وألحقنا بها رائية ابن حمديس الرائعة فى المعتمد ابن عباد، إذن فلا بد لنا أن نضم إلى المجموعة دالية ابن عبدالصمد الجياشة بالعواطف والدموع وأن نقف وقفة قصيرة عند ابن عباد الملك الشاعر المشفق على الشعراء والأدباء لكى نلقى نظرة حتى ولو عابرة على مأساة الدولة العبادية وتاج مفرقها المعتمد ابن عباد الملك الشاعر أو الشاعر الملك.

إن نكبتى بريشتر وبلنسية قد كانتا من أكبر النكبات الأندلسية وأهولها بعد إنهيار الدولة الأموية ودمار عاصمتها قرطبة وأما رابع النكبات الأندلسية الكبرى فهى نكبة الدول الطائفية الأندلسية وانهيارها وخاصة دولة بنى عباد أصحاب مملكة إشبيلية وما إليها من المدن والحصون وعلى وجه أخص سقوط المعتمد ومصيره المؤلم الذى أبكى أصدقاءه الثلاثة من الشعراء الفطاحل فندبوه ورثوه وأوفوا له حقه وهم ابن حمديس الصقلى وابن اللبونة وابن عبد الصمد.

Marfat.com

إن الدارس الجاد والناقد البصير للرثاء العربى الأندلسي يقف مندهشا عندما يرى أن رثاء المدن والحواضر الأندلسية لا يساوى ما قيل في رثاء البعض من الملوك الساقطين لدول الطوائف وخاصة ما قاله الشعراء الثلاثة فى المعتمد ابن عباد ويرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب:

أولها - أن نكبات قرطبة وبربشتر وبلنسية لم تجد شاعراً من الفحول يتأثر بها أو لعل ما قاله البعض منهم قد ضاع ولم يصل إلينا إلا مثل أبيات ابن خفاجة عن نكبة بلنسية ،ومن المعلوم أن الشاعر لا يقول كما أن الأديب لا يكتب إلا ما يتأثر به فيؤثر فى المجتمع بما يقول أو يكتب .وأما نكبة دول الطوائف أو سقوطها فقد تأثر بها الفطاحل من الشعراء من أمثال ابن عبدون وابن حمديس وابن عبد الصمد وأضرابهم وذلك مما أنطقهم وجعلهم يبكون على ذلك المصاب ويندبون المنكوبين؛

والسبب الثانى هو أن ملوك الطوائف عامة وملوك بني الأفطس خاصة وملوك بني عباد على وجه أخص كانوا يهتمون بالشعراء أبلغ اهتمام ويعنون بهم أكبر عناية وكانوا ينفقون عليهم من خزائنهم بلا حساب مع الشفقة عليهم والإكرام لهم، وأما المعتمد فقد كان فى قمة الشعر كما أنه كان فى قمة المروءة والبطولة حتى إنه لو اكتفي بمروءته وبطولته وقصر جهوده وما كان يملكه من الذكاء والكفاءة والدهاء والعبقرية على بناء الدولة والمجتمع لكفى فقد كان بامكانه أن يعوض الأندلس عما فاتها بفقد الناصر لدين اللهّ وابن أبى عامر وغيرهما من الساسة الدهاة والعباقرة الزعماء فى الأندلس الإسلامية!

على الكل فإن سقوط صاحب القصورالفاخرة (من الزاهى والمبارك والوحيد) والملك الشاعر المشفق على الشعراء قد كان حدثا مأساويا وكارثة كبري بالنسبة إلى شعراء بلاطه وأصدقائه الأوفياء له من أمثال ابن حمديس وابن اللبونة وابن عبد الصمد!

وأما السبب الثالث فى رأينا فهو أن الغزو المرابطى لم يكن هدما ودمارا وإنما كان بناء وانقاذا بالنسبة إلى مسلمي الأندلس فلم يعن شاعر برثاء المدن وإنما عني البعض منهم برثاء أولياء النعمة لهم المنكوبين والأعزة الذين ذلوا بتداول الأيام بين الناس فبكوا عليهم وندبوهم وأبدعوا فى رثائهم وعلى رأس هؤلاء الساقطين المنكوبين ابن عباد الذي تعاون على البر مع المسلمين الأندلسيين ومع الغزاة الفاتحين ولم يكن له ذنب غير كفائته وأوصافه البطولية وأكبر الدليل على ذلك أن المرابطين لم يستطيعوا أن يحاكموه أو يعاقبوه بين يدى الشعب الأندلسي المسلم فقد عوقب المعتمد بلا ذنب ومات مظلوما فى سجن أغمات فى سنة ٤٨٨هـ

Marfat.com

وقد سرد لسان الدين ابن الخطيب فى أعمال الأعلام قصة القبض على ابن عباد وسفره إلى العدوة مكبولا ثم سجنه وموته فى أغمات فقال:

«وفى يوم الأحد لعشر بقين من رجب فتحت المدينة فوقع النهب وفر أهلها إلى المحلة وخرج ابن عباد وابنه مالك ، فقتل مالك بين يديه وكوثر المعتمد فأغمد سيفه وانصرف إلى القصر ملقيا بيده ،ووقع البريح بكف الأيدى ثم أخرج المعتمد فغرب مكبولا مذال العز ،مسلوب الملك بعد أن جرت عليه أهوال وتلفت بنته يوم الخروج ثم جبرت عليه بعد ذلك واستقر بأغمات واقتات من غزل بناته وجرت عليه خطوب شهيرة يهون سماعها مصائب الزمان وحوادث الحدثان»

وقد كان من حسن حظ المعتمد أن الشعراء الفطاحل الثلاثة الذين زينوا بلاطه وتلقوا منه ما تمنوه من الصلة والجائزة قد أوفوا له الحق وثبتوا على صداقته واستمروا على صلة به يمدحونه ويجاوبونه فى سجنه ثم بكوا على موته وندبوه . وقد كان أوفى الثلاثة حقا وأكثرهم حزنا عليه هو ابن اللبونة صاحب كتاب سقيط الدرر ولقيط الزهر في الدولة العبادية والملقب بسمو ءل الشعراء فى الرثاء العربى الأندلسي وهو الذى يندب ابن عباد فيقول:

انفض يديك من الدنيا وساكنهـــا فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها السفلى قد كـــتمت سريرة العالم العلوي أغـــــمات!

وأما دالية أبي بكر ابن عبد الصمد فهى من عيون الشعر العربى وغرة الرثاء الأندلسي وهى مليئة جياشة بالعواطف الحزينة والمشاعر الكئيبة فقد زار صاحبها قبر المعتمد فى أغمات يوم العيد فطاف بالقبر والتزمه ثم خر على تربه فلثمه وبكي فأبكى وذاب فأذاب ثم أنشد داليته المشهورة هذه التى سارت بها الركبان وعاشت على وجه الزمان.

وقد كانت مدينة بلنسية أكثر المدن الأندلسية الإسلامية محنة ومصابا فقد أصيبت بالنكبات أكثر من مرة وقد ابتليت بثالث النكبات العدوانية الملمة بها وذلك بعد نكبة قرطبة على أيدى الفتنة البربرية ومدينة (بربشتر) على أيدى النورمان المعتدين، أما النكبة الأولى التى منيت بها بلنسية فهى استيلاء السيد القمبيطور المغامر فى ٤٨٧هـ فقد احتل هذا المغامر المفسد مدينة بلنسية بعد حصار دام طويلا وقد استمراحتلاله لها إلى ٤٩٥هـ حين استرجعها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين المرابطى وقد شهد الفقيه أبو عبد الرحمن ابن طاهر البلنسى محنة بلنسية على يد السيد القمبيطور فوصف حالها فى بعض ما كتبه عن المحنة فقال:

«فلو رأيت قطر بلنسية نظر الله إليه وغاد بنوره عليه وما صنع الزمان به وبأهليه لكنت تندبه وتبكيه فقد عبث البلى برسومه وعدا على أقماره ونجومه فلا تسأل عما فى نفسى وعن نكدى ويأسى».

وكان الشاعر الأندلسي إبراهيم ابن خفاجة المولود بمدنية شقرا والمتوفى بها فى سنة ٥٣٣هـ شاعر الجمال الطبيعى الفاتن وصاحب الخيال البديع الذى يعتبر إماما ورائداً لشعر الطبيعة عند الأفرنج فى آدابهم جميعاً، قد تأثر بالكارثة الكبرى والنكبة الأولى التى منيت بها مدنية بلنسية فانشد رائيته البديعة ورثى بها محنة المدينة ونكبة أهلها قائلاً: «وعاثت بساحتك الظبى يا دار الخ»

وأما النكبة الأخيرة وأبشع الكوارث التى ألمت بتلك المدنية البائسة فهى التى أصابتها على أيدى الأفرنج المعتدين فى سنة ٦٣٠هـ حين استولى عليها ملك أرغون صلحا بعد أخذ الشروط ولكنه خالفها ونقض العهد فحل عتابه بالمدينة وأهليها فبكى عليها الأدباء والعلماء والشعراء ومنهم أبو عبد الله ابن الأبار والكاتب أبو المطرف ابن عميرة فقد رثيا كلاهما مصاب بلنسية شعراً و نثراً فمن ذلكم ما قاله ابن عميرة فى رسالة إلى ابن الأبار:

«فيا لله لأتراب درجوا وأصحاب عن الأوطان خرجوا قصت الأجنحة وقيل طيروا وإنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا فتفرقوا أيدى سبا وانتشروا ملء الوهاد والربا ففى كل جانب عويل وزفرة، وبكل صدر غليل وحسرة، ولكل عين عبرة ولا ترقأ من أجلها عبرة»

وقد رثى أبو المطرف ابن عميرة ذلك المصاب شعرا أيضاً فأنشد رائية وقد سجلها الحميرى في الروض المعطار كما رثاه ابن الأبار بسينيته المعروفة فى حضرة ملك فاس وكلتا القصيدتين تضمهما هذه المجموعة المختارة من رثاء الأندلس على ألسنة شعرائها.

وأما أشهر القصائد فى مجموعتنا المختارة هذه التى تشتمل على مراثى الأندلس المحزنة المبكية فهى قصيدة أبى البقاء الرندى الأندلسي رحمه الله تعالى، وأصله من رندة ، وقد كانت معقلا حصينا بين إشبيلية ومالقة وهو أحد الحصنين فى تلك المنطقة من الأندلس الإسلامية وقد كان أحد الحصنين يسمى برندة والثانى مارتلة وكانا تحت حكم بني عباد وآخر هم الملك الشاعر المتعمد ابن عباد صاحب مملكة إشبيلية من ملوك الطوائف.

وأما أبو البقاء الرندى الأندلسي فهو الإمام العالم والأديب العلامة والشاعر المفلق المتفنن صالح بن الشريف ويكنى أيضا بأبى الطيب وله كتاب مؤلف فى الفرائض وقد شرحه الطبيب الماهر الشهير

أبو محمد ضياء الدين عبد الله بن أحمد ابن البيطار المالقى المتوفى في ٨٩١هـ.

ولأبى البقاء الرندى شعر رصين غير نونيته المعروفة فى رثاء المدن الأندلسية وقد روى بعض شعره أحمد المقرى فى نفح الطيب فمن ذلك قوله فى البحر يشبه فيه حبب البحر الأزرق بشهب السماء الزرقاء حين تبدو وتغيب وهو من أحسن ما قيل فى هذا المعنى :

البحر أعظم مما أنت تحسبـــه　　من لم ير البحر يوما ما رأى العجبا
طام له حبب طاف علـــى زرق　　مثل السماء إذا ما ملئت شـــهبا

وله فى مدح العقل والعاقل:

ما أحسن العقل وآثـــــاره　　لـــو لازم الإنسان إيـــــثاره
يصون بالعقل الفتـــى نفسه　　كما يصـــون الحـــر أســراره
لا سيمـــا إن كان فى غـربة　　يحتاج أن يعـــرف مـــقداره

وله فى المقص:

ومصطحبين ما أثما بعـــشق　　وإن وصفا بضم واعـــتناق
لعمر أبيك مـــا اجتمعا لشئ　　سوى معنى القطيعة والـــفـــراق

وأما ترجمة أبى البقاء الرندى المفصلة المبسطة فإننا لم نعثر عليها وحتى مولد الشاعر ووفاته إلا أننا نرجح أن يكون قد عاش فى أخريات الحكم الموحدى فى الأندلس وقبيل إنشاء الدولة الناصرية بغرناطة الجميلة وذلك لأسباب أهمها :

١) يصرح أبو البقاء فى نونيته بأن العدو قد أخذ اشبيلية واحتلها حيث يقول وهو يعد المدن التى سقطت فى أيدى الأفرنج:

فاسئل بلنسية ما شأن مـرسيـة　　وأين شاطبة أم أين جيـــان؟
وأين قرطبة دار العلوم فكـــم　　من عالم قد سما فيها له شـــأن؟
وأين حمص وما تحويه من نـــزه　　ونهرها العـــذب فياض وملآن؟!

٢) ومنها أن أبا البقاء يخاطب ملكا من ملوك الإسلام فى الشرق كما يخاطب المسلمين الآمنين بديارهم فى الشرق الإسلامى حيث يقول:

يا أيها الملك البيضاء رايتـــه　　أدرك بسيفك أهل الكفر لا كـــانوا

ترى من هو الملك المخاطب فى هذا البيت؟ أهو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى؟

Marfat.com

والجواب لا! وذلك لأن الشكاوى التى حملها علماء الأندلس ومسلموها إلى أمير المسلمين لم يكن فى حاجة إلى تحريض الشعراء على الإغاثة والجهاد وإنما كفاه أن تستغيثه أمة الإسلام فيغيثهم دون أى تأخير أو تماطل.

٣) ومنها أن أحمد المقرى يصرح فى مفتتح نونية أبى البقاء بأن الذين ناداهم المسلمون الأندلسيون فى الشرق الإسلامى سواء كانوا ملوك الإسلام أو أمته لم يكونوا أهل النصرة والإغاثة فلنستمع إليه حين يقول المقرى وهو يفتتح نونية أبى البقاء الرندى الأندلس بقوله :

«ولله در الإمام العالم العلامة خاتمة أدباء الأندلس أبي الطيب صالح بن الشريف الرندى رحمه الله إذ قال يندب بلاد الأندلس (ولم يقل إنه يندب غرناطة؟!) ويبعث العزائم ويحركها من أهل الإسلام لنصرة الدين وإنقاذ البلاد من يد الكافرين (ولم يقل من يد ملوك الطوائف الكافرين؟!) ولسان الحال ينشده: لقد أسمعت لو ناديت حياً! وحاشا وكلا أن يقال هذا الكلام لأمير المسلمين!!

٤) ومنها أن المقرى يصرح عند إنشاده نونية أبى البقاء الرندى فى نفح الطيب قائلا بأن الناس قد زادوا أبيات منحولة فى النونية والتى قيلت بعد سقوط غرناطة فهى ليست من نونية أبى البقاء وأنه قد نقل القصيدة عمن يوثق به ولم توجد فيها تلك الزيادة.

فإذا تعين أن الملك المخاطب بهذه النونية لم يكن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وأيضا إذا اتضح بأن إشبيلة لم يكن الكفار قد أخذوها حين أغاث أمير المسلمين لأهل الأندلس وإنما كانت إشبيلة آنذاك عاصمة أقوى ملوك الطوائف وأعندهم وهو المعتمد ابن عباد وكذالك إذا تعين أن هذه النونية لم تكن قد نظمت عقب سقوط غرناطة فقد اتضح جليا وتعين بأنها كانت قد قيلت فى نهاية الحكم الموحدى فى الأندلس وقبيل إنشاء الدولة الناصرية بغرناطة وأن الملك المخاطب بها قد يمكن أن يكون ملك فاس الذى استغاثه ابن الأبار وابن العربى العقيلى فى قصيدتيهما كما سيمر بنا وبذلك كله غلب الظن أن يكون أبو البقاء الرندى حيا فى القرن السابع الهجرى وفى نهاية الحكم الموحدى فى الأندلس!

وأما نونية الرندى رحمه الله فهى من أجمل الشعر العربى الأندلسي وأروعه كما أنها أجود مرثية بكى بها شاعر عربى على بلاده المغصوبة ومجد أسلافه السليب وستبقى طغراء لرثاء الأندلس الإسلامية على ألسنة شعرائها وقد سجلها الكثيرون من أصحاب التراجم والسير والتاريخ وقد حفظها المسلمون المهاجرون من الأندلس ورووها لأجيالهم الناشئة وقد اختارها الكثيرون من مؤلفى المقررات الدراسية والكتب المنهجية فى العالم العربى الإسلامى وقد اشتهر بعض أبياتها على ألسنة العامة

Marfat.com

والخاصة وصارت كأنها أمثالا سائرة تتناقلها الأفواه وتتلقاها الأسماع وتشتهيها الأذواق جيلا بعد جيل!

ويرجع ذلك كله إلى ما تمتاز به نونية أبى البقاء الرندى من جزالة اللفظ وسهولته وغزارة المعنى ودقته بالإضافة إلى صدق تعبير وحسن حياكة مع الموسيقى الشعرية الناعمة الأخاذة والأسلوب السهل الممتنع الذى ينسجم اللفظ فيه بالمعنى بشكل يرغب القارئ بإلحاح فى القراءة المستمرة للقصيدة ويجعل السامع مأخوذا مسحورا يحب الاستماع إلى المنشد، إنها لكلمات سهلة متداولة تستأنس بها السامعة ولكنها قد ركبت تركيبا هندسيا بارعا بديعا تستلذها السامعة وتحلو لها حين تعبر عن العواطف الصادقة والأخيلة الدقيقة والمعانى الرائعة تستأسر النفوس وتؤثر فى القلوب وتستعد لها الذاكرة قبل أن تستلذها اللسان.

وتبدأ القصيدة بمطلع يعجب السامع فيستوقفه ويملأ أذنه بصوت محزن حكيم يعظه ويأمره وينهاه قائلا:

لكل شئ إذا مـــا تم نقصـــان ... فلا يغر بطيب العيش إنســـان

هى الأمور كما شاهدتهـــا دول ... من سره زمن ساءته أزمـــان

وتحوى نونية الرندى خمسة وأربعين بيتا فى المشهور فالأبيات الخمسة الأولى تكون مقطعا شعريا كله عبر ومواعظ وحكم ونصائر للبشر جميعا ينصح لهم الشاعر بأن لا يغروا بالدنيا وبهجتها ولا يأمنوا على كيد الزمان وبطشه فهو يفاجئ ابن آدم المسكين المخدوع دائما فيأتى عليه وعلى كل ما يمتلكه أو يتمناه أو يعلق به.

ثم نرى أبا البقاء يتتبع ابن عبدون فى رائيته المشهورة التى درسناها آنفا فيصف الدول الماضية التى أنشأها البشر فأقرها الدهر لحظات ثم هدمها وأتى عليها فأصبحت تسيا منسيا وكأن لم يكن شيئا مذكورا ثم يتحول الشاعر إلى ما أصيب به الإسلام وأهله فى الأندلس فيصور الآلام والنكبات والمصائب والآفات تصويرا مؤلما حزيناً ويحكى الفظائع الرهيبة التى ارتكبها أهل الصليب ضد المسلمين فكالوا لهم الضربات الشديدة المهلكة المخزية من القتل والنهب والسبى والدمار وهتك الأعراض ثم يخاطب أهل الإسلام فيحرضم على نصرة الدين وإنقاذ الأندلس الإسلامية من أيدى الأفرنج ولكن لسان الحال يرد على الشاعر قائلا «لقد أسمعت لو ناديت حياً» على حد تعبير أحمد المقرى رحمه الله و«تنتهى» القصيدة ببيت هو بيت القصيد وحسن الخاتمة ومراد الشاعر ويبدو وكأنه

Marfat.com

قد ذاب قلبه ويريد أن يذيب قلوب المؤمنين قائلا:

لمثل هذا يذوب القلب من كمـــد إن كان فى القلب إسلام وإيمـــانا

ومن بين مراثى الأندلس الإسلامية على ألسنة شعرائها قصيدة رائية لشاعر مجهول يندب بها مدينة طليطلة الإسلامية التى كان العدو قد احتلها فجعل أعزة أهلها أذلة وهى قصيدة غير قصيرة ولا تخلو من متانة اللفظ وبداعة الحيا كة إلى دقة المعنى وابتكاره وندرة الخيال وبراعته مع لون واضح من ألوان ابن عبدون وأبى البقاء الرندى فى قصيدتيهما الفريدتين.

ويصور الشاعر أبعاد الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التى غيرت الظروف وأفسدت الأحوال ويقارن بين أمس طليطلة وحالها وعيش أهلها الرغيد بالأمس وسوء حالم اليوم ويحرض المسلمين على الجهاد ويأمرهم بالاجتناب من الجبن والتخاذل وأغرب ما نراه فى القصيدة هو ما جعل الشاعر ينصف على دأب الشعراء العرب فى الجاهلية والإسلام فيصرح بأن تلك المصيبة العظمى إنما هى نكير من الله وتنبيه للمسلمين وجزاء عادل من القدرة والقضاء لأعمالهم السيئة التى اقترفوها:

فإن قلنا العقـــوبة أدركتهـم وجاء هم من اللـه الـنكيـر
فأنا مثلهم وأشـد مـــنهـم نجور وكيف يسلم مـن يجـور
أنأمن أن يحل بنـــا انتقـام وفينا الفسق أجمع والفجـور
وأكل للحـرام ولا اضطـــرار إليـه فيسهـل الأمر العسير

وقصيدة همزية فى هذه المجموعة لشاعر مجهول ولكنها فى منتهى الروعة والجمال وتعبر عن مشاعر أهل الأندلس المكنوبين وتحرض الملك الحفصى على الجهاد ونصرة الدين الإسلامى وإنقاذ المسلمين من براثن الأفرنج الطغاة وذلك مما جعلنا نختار القصيدة لتضمها مجموعتنا هذه ومطلعها (والمخاطب فيها هو الملك الحفصى عبد الواحد أبو زكريا ابن أبى حفص):

نادتك أندلس فلب نداء هـــا واجعل طواغيت الصليب فـداءها

والشاعر يخاطب الملك باسم الأندلس الإسلامية التى هى دار ملكه القصوى وهى تفزع إليه وتستغيثه وقد ضمن لها نصره ورعايته فيجب عليه الآن أن ينهض لنصرتها والذود عنها والحماية لها لأن جيشه الإسلامى هو جيش من خيل جرد قد أعدت للجهاد فى سبيل الله وللذود عن حياض الإسلام وبلاد المسلمين فهؤلاء الفرسان المجاهدون يستطيعون أن يقضوا على طواغيت النصارى المعتدين على مدينة بلنسية وينقذوها من براثن العدو لكى تستعيد الأندلس ما فقدت من الأمن

Marfat.com

والسلام وما حرمت منه من العز والشرف والرخاء.

ولا يكتفى الشاعر بتحريض الملك وحده وإنما يحرض الأمة الإسلامية على الجهاد كذلك ويخاطبهم باسم الشعب المسلم الأندلسي الذى يتضرع إليهم ويستغيثهم ويهتف باسمهم وبناديهم بقلوب واجفة ونفوس حزينة على ما أصيب به ، وفى نفس الوقت يبحث الشاعر لنفسه عن العزاء والسلوى بذلك المصاب العظيم من الاعتداء الأفرنجى الغاشم الذى سلب حقوقه وسامه الذل والهوان.

ثم يتحول الشاعر إلى موضوع آخر فيذكر الملك بالمعاهد العلمية والمدارس والمساجد التى احتلها العدو المعتدى كما أنه يذكره بما امتازت به الأندلس من المناظر الطبيعية الرائعة والحقول العامرة الخضراء والأودية الحافلة والجبال الشاهقة والعيون المتدفقة التى تملأ القلب روعة وإعجابا.

وينهى الشاعر قصيدته الطويلة بالاعتراف بعجزه عن التعبير الصادق عن عواطف الأندلس ومشاعرها وأن الملك وحده يستطيع أن يقدر الموقف وينهض له فهو قادر على ذلك وبه جديرا

ومن بين مراثى الأندلس الإسلامية قصيدة أبى عبد الله ابن الأبار القضاعى البلنسى يرثى المدن الأندلسية الإسلامية وعلى رأسها مدينة بلنسية مسقط رأس ابن الأبار وموئل بنى قضاعة ومأواهم بالأندلس وكان من حديث بلنسية أن ملك برشلونة النصرانى كان قد حاصرها فاستغاث أميرها زيان بن أبى الحملات ابن مردنيش بصاحب أفريقية أبى زكريا بن أبى حفص فأوفد عليه ابن الأبار كاتبه مع الرسالة إليه فقام ابن الأبار بين يدى السلطان فأنشده قصيدته السينية الفريدة الغراء التى «هزت من السلطان عطف ارتياح وحركت من جنانه أخفض جناح» على حد تعبير أحمد المقرى رحمه الله، الذى احتفظ بهذه القصيدة فيما احتفظ به من التراث العربى الأندلسي الكثير فأعجب السلطان بالقصيدة فأمر شعراء حضرته بمجاوبتها فجاوبها غير واحد منهم وبادر السلطان الحفصى بإعانة أهل بلنسية المحصورين وأمدهم بالأساطيل البحرية والأموال والأقوات والكسى إلا أن العدو كان قد حال دون هذه الأمداد السلطانية وسبقها إلى التغلب على المدينة فاحتلها وكان ذلك يوم الثلاثاء السابع عشر لصفر من سنة ست وثلاثين وستمائة وكانت الأمداد قد وصلت متأخرة بسنة أى فى سبع وثلاثين وستمائة على ما صرح به المقرى.

إن قصيدة ابن الأبار السينية هذه وإن كانت لا تخلو من طابع خاص بالشعراء الفقهاء المتأدبين ولكنها فى نفس الوقت تحمل رونقا وروعة من فصاحة اللفظ بالإضافة إلى حسن وبهاء من بلاغة المعنى وتستحق أن تجد مكانة مرموقة بين مراثى الأندلس الإسلامية على ألسنة شعرائها.

ويبدأ ابن الأبار قصيدته بالرجاء الملح من سلطان فاس لنصرة مسلمى الأندلس وإنقاذهم من سيطرة طاغية الأفرنج الذى تغلب على بلادهم واستعبدهم وهو فى ذلك لا يلجأ إلى التشبيب أو التوطئة والتمهيد وإنما يبدأ بغرضه المنشود وهدفه المطلوب مباشرة فيرجو السلطان أن يدرك الأندلس وأهلها بنصرته فينقذها من الدمار والإندراس ويشرح له حال المسلمين وما أصيب به المعاهد الدينية والمساجد مع الرجاء الملح الشديد لنصرة الإسلام والمسلمين فإن ذلك من سنة أسلافه وتقاليد آبائه ثم نرى ابن الأبار الفقيه قد انبرى بمدح السلطان وأسرته فأتى بالعجائب من المعاني الشعرية والمحاسن البلاغية وقد نجح فيما قصد إليه من كسب تائيد السلطان والتأثير فى نفسه وتحريضه على نصرة أهل بلنسية وإنقاذهم من العبودية المحتومة على أيدى طاغية الأفرنج.

وأما صاحب هذه القصيدة السينية الغراء أو عبد الله ابن الأبار القضاعى صاحب تكملة الصلة والحلة السيراء وإعتاب الكتاب وتحفة القادم وإيماض البرق وغيرها من المؤلفات القيمة فهو غنى عن التعريف وهو الذى يقول:

ونهر كما ذاب سبائك فضـــة حكى بمجاريه انعطاف الأراقـــم

إذ الشفق استولى عليه احمراره تراءى خضيبا مثل دامى الصوارم

وقد مات ابن الأبار مقتولا بتونس فى ٦٥٨هـ.

ومنها القصيدة الميمية التى أنشدها أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن العربى العقيلى الفقيه الأديب الناظم الناثر الكاتب المجيد صاحب سميّه وكنيّه السلطان أبى عبد الله ابن الأحمر آخر ملوك غرناطة الناصريين والذى سقط عرشه على أيدى الملك فرديناند وصاحبته الملكة إيزابلا فى الثانى من يناير سنة ١٤٩٢م أى الثانى من ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ فنفاه الأفرنج إلى أفريقية الشمالية فركب السفينة التى حملته هو وعائلته إلى العدوة فلجأ إلى فاس المغرب وكان ملكها إذ ذاك هو الشيخ الوطاسي من بنى مرين.

وقد افتتح العقيلى بقصيدته هذه ذلك الكتاب الذى بعث به أبو عبد الله ابن الاحمر إلى الشيخ الوطاسى صاحب فاس فى وقته وكان الغرض من الكتاب هو «تمهيد لعذره وتوطئة لمقصده وتطارح على تلك الأبواب وتملق، وتمسك بذلك الجناب وتعلق» على حد تعبير المقرى فى أزهار الرياض.

وهذه القصيدة الميمية ليست بمرثية الأندلس أو غرناطة بمعنى الكلمة ولكنها تعبر بدون شك عن عواطف الملك الساقط المخلوع الباكي على ملك غرناطة الذاهب ومجد آبائه السليب كما أنها لا تخلو

Marfat.com

من الحزن العميق على سقوط غرناطة والندم الشديد على ما حل بالأسرة الأحمرية والشعب المسلم المستعبد المظلوم وذلك مما يبرر ضم القصيدة إلى مراثى الأندلس على ألسنة شعرائها.

وأما قصيدة ابن العربى العقيل الميمية فهى من عيون الشعر العربى الأندلسي الرصين وفى غاية الفصاحة اللغوية والبلاغة المعنوية وتستحق أن تحتل مكانة فيما أنتجه الشعراء العرب الفطاحل فى الشرق والغرب من القدماء والمحدثين من أمثال نابغة الذبيانى والمتنبئ وأبى تمام وهى فى الوقت نفسه تمثل الشعراء الذين تتبعوا البوصيرى رحمه الله فى بردته المعروفة التى قرض على منوالها الكثيرون فى القديم والحديث، والقصيدة حافلة بالأمثلة على ذلك كما أنها مليئة بالأمثال العربية السائرة فمن ذلك قوله:

والمرء ما لم يعنه الله أضيع من ... طفل تشكى بفقد الأم فى اليتم
وكل ما كان غير الله يحرسه ... فإن محروسه لحم على وضم!!

ويتخلل القصيدة مصاريع قد ابتكرها العقيلى تكاد تكون أمثالا مرسلة كما قال «وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم» وقوله: «وأى ملك بظل الملك لم ينم» وقوله: «والبين أقطع للموصول من جلم».

والقصيدة لا تخلو كذلك من المعانى المبتكرة النادرة قد يكون العقيلى أبو عذرتها ولم يسبقه إليها أحد مثل قوله:

وصل أو أصر قد كانت لنا أشتبكت ... فالملك بين ملوك الأرض كالرحم

ومن بين المراثى الأندلسية قصيدة الشيخ الدقون يندب بها الجزيرة بعد استيلاء العدو على جميعها وبعد انقراض الدولة الناصرية الغرناطية والقصيدة تحفل بالعواطف المحزنة الجياشة وتذكرالنفوس بشجوها فترسل العيون دموعها الغزيرة كما يقول أحمد المقرى، وقد افتتح الشيخ قصيدته بنص نثرى وهو:

«الحمد لله على كل حال والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله خير آل، أما بعد ... فيقول خديم أهل الله تعالى عبيد الله أحمد بن محمد الأندلسي الشهير بالدقون لطف الله به بمنه وكرمه إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء بأخذ الحمراء قرعت باب الندبة لما تقدم من الصحبة فقلت أبياتاً صدرت من قلب كئيب مبكية كل لبيب أريب وسميتها بالموعظة الغراء بأخذ الحمراء مبيحا لمن رغب فيها ولم يرغب عنها أو استحسن شيئا منها أن يحدث بها عني وذلك بعد اتقان لفظها وحفظها وفهم وعظها ولحظها وإن كنت لا أحسن أن أقول وربما أعزى بها إلى الفضول لكن لا أعدم المثل وفى مثل هذا قيل:

Marfat.com

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلهـا كفى المرء نبلا أن تعد معايبـه»

فهذا هو تعليق الشيخ الدقون نفسه على قصيدته التى ندرسها الآن والتى ينتصها الأسلوب الشعرى المعهود المألوف عند شعراء الأندلس الفطاحل الذين بكوا على مجدها الذاهب ورثوا مدنها الساقطة فى أيدى الأعداء المعتدين والقصيدة الدقونية هذه تعبر عن أبسط المعانى بأبسط الكلمات ولكنها تصور أحزان المنكوبين المضطهدين من المسلمين على أيدى الكنيسة المسيحية ومحاكم التفتيش بعد سقوط غرناطة وغدر النصارى ونقضهم لشروط المعاهدة التى تمت بينهم وبين الملك الناصري المخلوع أبى عبد الله ابن الأحمر.

إن هذه الفترة من تاريخ المسلمين الأندلسيين فترة عصيبة رهيبة جدا فقد ارتكبت الكنيسة المسيحية من المظالم التى يعجز عنها القلم واقترفت من الجرائم التى لا تزال ولن تزال سبة وعارا فى جبين التاريخ المسيحى وهى فترة تحتاج إلى البحث والتنقيب والفحص والتحقيق وقلما تناولها الكتاب والأدباء والشعراء غير ما قام به الكاتب الإسلامي الكبير الأستاذ نسيم حجازى فهو الذى أولى اهتمامه بهذه الفترة العصيبة الهائلة وألف روايات تاريخية أردية قد نالت إعجاب القراء والناقدين على السواء، ومن هنا تتضح أهمية القصيدة الدقونية هذه.

وأما صاحب القصيدة فهو الشيخ الفقيه الراوية الشاعر الأستاذ أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف الصنهاجى الشهير بالدقون الخطيب بجامع القرويين بفاس المغرب، رحمه الله ، وكان قد أخذ العلم عن الأستاذ الشيخ الصغير فقد قرأ عليه بالسبع وقارب الختم ولكنه توفى إلى رحمة الله قبل الإكمال فأكمل على ابن غازى وقد روى الشيخ الدقون عن الإمام المواق فهرسته وكان كثير المزاح، وروى عنه أبو القاسم ابن إبراهيم وغيره وتوفى فى شعبان عام واحد وعشرين وتسعمائة.

وأما القصيدة الأخيرة من مجموعتنا المختارة هذه التى تشتمل على رثاء الأندلس الإسلامية على ألسنة شعرائها فهى قصيدة لشاعر مجهول من أهل الجزيرة الخضراء والذى عاش بعد استيلاء العدو على الأندلس كلها واحتلاله لمدنها العامرة الإسلامية كلها بما فيها غرناطة وهى قصيدة مهداة إلى السلطان با يزيد خان العثمانى.

والواقع أن هذه القصيدة تمثل الأسلوب البسيط مع التعبير الصادق الصحيح عن مشاعر المنكوبين المستغيثين ورغم أن ألفاظها غير بليغة وحياكتها رديئة كما يصرح به المقرى إلا أنها تستحق أن تجد لها مكانة فى مجموعتنا المختارة هذه إذ هى تأييد لما جاء فى القصيدة الدقونية

وتصوير صادق لما واجهه المسلمون المنكوبون الذين اضطهدتهم الكنيسة المسيحية فى أسبانيا وأكرهتم على اعتناق المسيحية أو الموت حرقا وهى فظائع هائلة ترتعد النفوس عند ذكرها وتقشعر الجنوب عند سماعها وتستعيذ القلوب بالله من دعاة الرحمة الكاذبين!!

وجملة القول فإن رثاء الأندلس الإسلامية على ألسنة شعرائها والذى تضمه هذه المجموعة المختارة إنما هو نوع مستقل من المراثى العربية الكثيرة على اختلاف أنواعها وأزمنتها وأماكنها وأن هذا النوع المستقل الفريد من الرثاء العربى يستحق الاهتمام والتقدير من قبل الدارسين والنقاد للآداب العربية الواسعة وخاصة فى هذه اللحظة الحاسمة من التاريخ البشرى حيث يجدد العالم العربى الإسلامى ذكرى الأندلس الإسلامية بعد مضى خمسة قرون على جلاء المسلمين عنها وتدمير الحضارة الإسلامية الراقية والثقافة العربية المتقدمة ومحو آثارها وتحريق سجلاتها من ذخائر الكتب ومكتباتها العامرة على أيدى الجهلة الأغبيا ء.

إن هذه المرحلة التاريخية لحظة حاسمة حقا حيث إن الإنسان المثقف المتحضر المتنور قد وقف اليوم على مفترق الطرق حائرا مندهشا وخاصة بعد فشل الشيوعية وظهور الديمقراطية والحرية وإعلان النظام العالمى الجديد المجهول نسبه والمخمول ملامحه! إن هذا الإنسان المثقف المتحضر المتنور الذى رفض الجبر والإكراه والاستبداد ويريد أن يعيش حراً بإرادته ورأيه وفكره يجب أن يتسائل هذا الإنسان فيقول:

لماذا وكيف دمرت الحضارة الاسلامية الأندلسية ؟

هل انتفعت أوربا بذلك الدمار والخراب أم خسرت؟

بل يجب أن يقول متسائلا:

هل أسبانيا المسيحية نفسها قد خسرت بذلك أم انتفعت؟

وما هى أبعاد تلك الخسارة أو ذلك الانتفاع ؟

لماذا يتباكى أبناء أسبانيا بجانب غيرهم من العلماء المتنورين المنصفين على تلك الخسارة اليوم ؟

وفوق ذلك كله فإنه يجب على هذا الإنسان المثقف المتنور أن يعرف: ما هو الإسلام ورسالته؟ وما ذا أشيع عنه وكيف ولماذا شوه ولا يزال يشوه وجهه ؟

كما أنه يجب على المسلم المثقف المتنور أن يصحو وينهض بمعنى الكلمة لكى يعرف من أين وكيف بدأت مسيرة الإسلام وكيف ولماذا انحرف بها أعداء الإسلام عن هدفه؟

Marfat.com

ويجب أن نعرف بداية الإسلام قبل أن نعرف نهايته المنشودة وهدفه الأسمى الذى يدعو إليه ويريد أن يقود إليه البشرا

وأما القيمة الأدبية لهذه المراثى الأندليسة التى تضمها هذه المجموعة المختارة فإن الحديث عنها أوالكلام والتعمق فيها أو التقدير لها فإنما هو من حق الدارس والناقد ولا نستطيع أن نضيف شيئا إلى ما سبق وقد حاولنا من تقويم القصائد وتحليلها على سبيل الإيجاز والاقتضاب ونكتفى هنا بالإشارة إلى بعض ما تحتوى عليه هذه المراثى الأندلسية المبكية المحزنة وتحمل من رسالة المعانى والأفكار:

(١) إن هذه المراثى إنما هى صور للكوارث الهائلة المهيبة التى مرت على الأمة الإسلامية الأندلسية كما أنها صدى النكبات الكبرى التى حلت بالحكم الإسلامى الأندلسي وهي سجل الهزات العنيفة التى أصيبت بها الأندلس الإسلامية فزلزلتها وزعزعت بنيانها خلال العديد من الفترات المتتالية فكأن هذه المراثى تمثل جميع المشاهد والمناظر التى تحتوى عليها الفصول المتعددة المختلفة لتلك المأساة الدرامية الأندلسية الكبرى التى لا نظير لها فى التاريخ والتى لا تزال تحزن وتبكى وتقيم وتقعد أجيال الأمة المسلمة إنها لمراثى محزنة مبكية تذيب القلوب المؤمنة على مصاب أمة وضياع حضارة!

(٢) إن الشاعر الأندلسي من خلال رثائه هذا المحزن المبكى يبدو واقعيا فيما يراه أو يقوله أو يحلله فهو يقوم بدور الناصح المصلح والناقد البصير والمعلق المنصف حين يوبخ المسلم الأندلسي أو ينقد الحاكم الأندلسي المسلم، ونراه يثور غيظا ويطير غضبا وينفخ فى الصور لكى تقوم القيامة و لكى يحث على العمل الجاد والجهاد ويهز القلوب هزا شديدا حين يصور الفظائع التى ارتكبها الأعداء المعتدون مع تحليل الأسباب تحليلاً منطقيا واستخراج النتائج الصحيحة الواقعية.

(٣) إن فكرة هؤلاء الشعراء الذين رثوا الأندلس وبكوا على مدنها تكاد تجمع على أن الأرض الأندلسية السليبة أرض الإسلام الموعودة وأنه لا بد أن يعود إليها المسلمون يوما مهما طال الزمن ومهما اختلفت الظروف والأسباب ولعل ذلك مما جعل شاعر الإسلام العلامة محمد إقبال يعتبر الأندلس فردوس الإسلام المفقود وأرض المسلمين الموعودة.

(٤) إن الدراسة الشاملة العميقة لهذه المراثى الأندلسية المحزنة المبكية والنظرة الغائرة فى معانيها ورسالتها الموحية لتقود القارئ حقا إلى داء الأمة المزمن ومرضها العضال ألا وهو التباغض

والمعاداة وعيش اللهو وإهمال الواجب فتلك هى العوادى والأسقام التى تعرقل سير الأمة وهى الأمراض والأدواء التى تقضى على مسيرتها وتأتى عليها!

(٥) إن كل شاعر من شعراء هذه المراثى لا بل كل بيت من أبياتها يوحى إلى القارئ المسلم بأن فى الوحدة حياة وفى الافتراق مماتاً ، وأنه يجب على كل عبد مؤمن أن يعمل بقول الله عز وجل حين ينادى عباده المؤمنين :

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا!

الدكتور ظهور أحمد أظهر
الأستاذ بقسم اللغة العربية - جامعة بنجاب
لاهور فى ٢٢ فبراير ١٩٩٢م

Marfat.com

وقال أبو عامر ابن شهيد يبكى قرطبة ويرثي أهلها [١]

ما في الطلـــول من الأحبة مخبـــر ... فمـن الـــذى عـــن حـــالـها نستخبر
لاتسألن ســـوى الـفـــراق فإنـــه ... ينبيك عنـــهم أنجـدوا أم أغوروا
جـار الـزمـــان عـــليهم فتفـرقوا ... في كـــل نـاحـيـــة ويـاد الأكثر
جرت الخـطـــوب على محل ديارهم ... وعـــليهـم فـــتغـــيرت وتـــغـــيروا
فـدع الزمـان يصوغ في عرصاتهم ... نـــوراً تـكـاد لـــه الـقلـوب تنور
فلمثل قرطبة يقـل بـــكـــاء مـــن ... يبكى بـعين دمـــعـــهـــا مـتفجر
دار - أقـــــال اللّـــــه عثرة أهلها - ... فتبـــربـــروا وتـــغـــربوا وتمـصروا
في كـل نـــاحـيـــة فـريق منهم ... متـفـطرلـــفـــــراقـــهامـتحير
عهدي بها والشمـــل فـــيهـا جامع ... مـن أهـــلـهـا والعيش فيها أخضر
ورياح زهـــــرتهـــا تـلوح عليهم ... بـــروائـــح يـــفـــتر مـــنـهـا العنبر
والدار قد ضـــرب الـكـمال رواقه ... فـــيها ويـــاع الـنقص فيها يقصر
والقوم قد أمنـوا تـــغـــير حسنها ... فتعمـــمـــوا بـــجـمالـــهـا وتأزروا
يا طيـبهم بقصورهـــــا وخـــدورها ... ويـــدورهـــا بـــقـــصـورها تتـــخدر

١- تخريج: أعمال الأعلام ص ١٠٥ وتاريخ الأدب الأندلسي ص ١٣٨

Marfat.com

والـقصر قـصر بـني أمـية وافر ... مـــن كـل أمـــر والخلافـــة أوفر
والـــزاهـــرية بـــالمـــركـــب تزهر ... والعـــامـريـــة بـالكواكب تـعـمر
والـجـامع الأعـــلي يغص بكل من ... يتلـــو ويـــسـمع مـــا يشاء وينظر
ومـــســـالـك الأســـواق تشهد أنها ... لا يـــســـتـقـــل بسالكيها المحشر
يـا جـنـــة عصـــفـت بـها وبـأهلها ... ريـــح الـنـــوى فـتدمرت وتـدمروا
آسـى عـــلـيـك من الممات وحُق لي ... إذ لـم نـزل بـك فـي حياتك نفخر
كـــانت عـراصـــك[1] للـمـيـمـم مكة ... يـأوي إلـــيـهـا الخائفـون فـينصروا
يـا مـــنـــزلاً نـــزلـــت بـــه وبـأهله ... طـــيـر الـنـوي فـتـغيروا وتنكروا
جـاد الـــفـــرات بســـاحتيك ودجلة ... والنيـل جـاد بـــهـا وجاد الـكـوثر
وسقيت من مـاء الحـيـاة غمامة ... تحيـــا بـــهـا منـــك الرياض وتزهز
أسفي عـــلى دار عهدت ربوعها[2] ... وظباؤهـا بـــفـنـائـهـــا تتبختر
أيـام كـانـــت عـــين كـل كـرامة ... من كل نـــاحـيـة إلـــيـــها تـنظر
أيـام كـان الأمر فـيـهـا واحـــداً ... لأميرهـــا وأمـــيـر مـــن يـتأمر
أيـام كـــانت كـــف كل ســـلامة ... تسـمو إليهـــا بالـــســـلام وتبدر
حـزنـــي علـى ســـرواتها[3] ورواقها ... وثـــقـــاتها وحـمـاتـــهـا يتكـرر
نـــفـسـي عـــلى آلاتـها وصفائها ... وبـهـائـــهـــا وسـنـــائها تـتحسر
كبـــدي عـــلى عـــلمائها حلمائـــها ... أدبـائـــهـــا ظـــرفـــائها تـتـفطر

---

١ – العراص : واحدها عرصة وهى ساحة الدار أو البقعة الواسعة بين الدار لا بناء فيها.
٢ – الربوع : واحدها الربع وهو ربع الدار أو ما حولها. والظباء : واحدها ظبي ويريد بها النسوة أو الفتيات الجميلات .
٣ – سراة كل شيء أعلاه ووسطه ومعظمه وهنا يريد بها السادة القادة.

٣٣

وقال ابن حزم يندب قرطبة نثراً وشعراً[١]

وقفت على أطلال منازلنا، بحومة بلاط مغيث من الأرباض[٢] الغربية، ومنازل البرابر المستباحة عند معاودة قرطبة. فرأيتها قد محت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها، وغيرها البلى؛ فصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافى موحشة بعد الأنس ، وآكاما مشوهة بعد الحسن، وخرائب مفزعة بعد الأمن، ومآوى للذياب، وملاعب للجان، ومغانى للغيلان، ومكامن للوحوش، ومخابى للصوص، بعد طول غنيانها[٣] برجال كالسيوف، وفرسان كالليوث، تفيض لديهم النعم الفاشية، وتغص منهم بكثرة القطين الحاشية، وتكنس فى مقاصيرهم ظباء الأنس الفاتنة تحت زبرج[٤] من غضارة الدنيا تذكر نعيم الآخرة؛ حال الدهر عليهم بعد طول النضرة؛ فبدد شملهم حتى ساروا فى البلاد أيادى سبا ،تنطق عنهم الموعظة. فكأن تلك المحاريب المنمقة، والمقاصير المرشقة، التى كانت فى تلك الديار كبروق السماء إشراقاً وبهجة، يقيد حسنها الأبصار، ويجلى منظرها الهموم، كأن لم تغن بالأمس، ولاحلتها سادة الأنس: قد عبث بها الخراب، وعمها الهدم؛ فأصبحت أوحش من أفواه السباع فاغرة، تؤذن بفناء الدنيا ،وتريك عواقب أهلها، وتخبرك عما يصير إليه كل ما قد بقى ماثلا فيها، وتزهدك فيها. وكررت النظر ، وردت البصر، وكدت أستطار حزنا عليها، وتذكرت أيام نشأتى فيها، وصبابة لداتى بها؛ مع كواعب غيد، إلى مثلهن يصبو الحليم ومثلت لنفسى انطواءهن بالفناء، وكونهن تحت الثرى إثر تقطع جمعنا بالتفرق والجلاء فى الآفاق النائية، والنواحى البعيدة؛ وصدقت نفسى عن فناء تلك القصبة، وانصداع تلك البيضة بعد ما عهدتهن حسنها ونضارتها وزبرجها وغضارتها، ونضوته بفراقها من الحال الحسنة، والمرتبة الرفيعة، التى رفلت في حللها ناشئاً فيها، وأرعيت سمعى صوت الصدى، والبوم زاقياً بها، بعد حركات تلك الجماعة المنصدعة بعرصاتها، التى كان ليلها تبعاً لنهارها، فى انتشارها بسكانها، والتقاء عمارها؛ فعاد نهارها تبعاً لليلها فى الهدو والاستيحاش، والخفوت والإخفاش. فأبكى ذلك عيني على جمودها، وقرع كبدي على صلابتها؛ وهاج بلابلى على تكاثرها، وحركنى للقول على نبو طبعى؛ فقلت :

---

١ - تخريج: أعمال الاعلام ص١٠٦، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١٣٩.

٢ - الأرباض واحدها ربض وهى الزوجة والملوى.

٣ - الغنيان: العمران والسكن.

٤ - الزبرج : الحلية والزينة.

Marfat.com

الطويل

سلام على دار رحلنا وغودرت ... خلاء من الأهلين موحشة قفرا
تراها كأن لم تغن بالأمس بلقعا ... ولا عمرت من أهلها قبلنا دهرا
فيا دار لم يقفرك منا اختيارنا ... ولو أننا نستطيع كنت لنا قبرا
ولكن أقداراً من اللّه أنفذت ... تدمرنا طوعاً لما حل وقهرا
ويا خير دار قد تركت حميدة ... سقتك الغوادى ما أجل وما أمرا[1]
ويا مجتلى تلك البساتين حفها ... رياض قواريرٍ غدت بعدنا غبرا
ويا دهر بلغ ساكنيها تحيتى ... ولو سكنوا المروين أو جاوزوا النهرا
فصبراً لسطو الدهر فيهم وحكمه ... وإن كان طعم الصبر مستثقلا مرا
لئن كان أظمأنا فقد طال ما سقى ... وإن ساءنا فيها فقد طال ما سرا
وأيتها الدار الحبيبة لا يرم ... ربوعك جون المزن يهمى بها القطرا
كأنك لم يسكنك غيد أوانس ... وصيد[2] رجال أشبهوا الأنجم الزهرا
تفانوا وبادوا واستمرت نواهم ... لمثلهم أسكبت مقلتي العبرا
سنصبر بعد اليسر للعسر طاعة ... لعل جميل الصبر يعقبنا يسرا
وإنى ولو عادت وعدنا لعهدها ... فكيف بمن من أهلها سكن القبرا
ويا دهرنا فيها متى أنت عائد ... فنحمد منك العود إن عدت والكرا

---

١ – الأمرأ من الطعام والشراب السائغ اللذيذ.

٢ – الصيد كالغيد جمع الأصيد من الرجال ذوى السلطة والقوة والمال.

٣٥

فيا رب يوم فى ذراها وليلة وصلنا هناك الشمس باللهو والبدرا
فوا جسمى المضنى ووا قلبى المغرى ووا نفسى الشكلى ووا كبدى الحرا
ويا هم ما أعدى ويا شجو ما أبرا ويا وجد ما أشجى ويا بين ما أفرا [1]
ويا نهر لا تبعد ويا عهد لا تحُل ويا دمع لا تجمد ويا سقم لا تبرا
سأندب ذاك العهد ما قامت الخضرا على الناس سقفاً واستقلت بنا الغبرا

١ – أفرا من الفرى وهو القطع.

Marfat.com

وقال الفقيه ابن العسال يبكي بربشتر [١]

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تُخط لكن شأنها الصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كل يوم غارة شعراء
باتت قلوب مسلمين برعبهم ... فحماتنا في حربهم جبناء
كم موضع غنموه لم يرحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرقوا من أمه ... فله إليها ضجة وبغاء [٢]
ولرب مولود أبوه مجدل [٣] ... فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة في خدرها محجوبة ... قد أبرزوها مالها استخفاء
وعزيز قوم صار في أيديهم ... فعليه بعد العزة استخذاء
لولا ذنوب المسلمين وأنهم ... ركبوا الكبائر ما لهن خفاء
ما كان ينصر للنصارى فارس ... أبداً عليهم فالذنوب الداء
فشرارهم لا يختفون بشرهم ... وصلاح منتحلي الصلاح رياء

---

١ - تخريج: الروض المعطار ص٤٠.

٢ - البغاء بضم الباء الطلب والحناية

٣ - المجدل: الملطخ الملوث.

Marfat.com

وقال بعض شعرائهم يبكي قرطبة [١]

السريع

إبـــك عـــلى قـــرطـــبـة الـزين ... فـــقـد دهـــتهـــا نـــظـــرة الـعين
أنظرهـا الـــدهـــر بـــأسـلاقه ... ثـــم تـــقـاضـى جـملـة الدين
كانت عـلـى الغايـــة مـــن حسنها ... وعيـــشـــهـا المســـتـــعذب اللين
فانعـــكـس الامر فـــمـا أن ترى ... بهـــا سرورا بـــين اثـنـين
فـاغـدو ودعـــــهـا وسر سـالما ... إن كـــنـــت أزمـــعـــت على البين

وقال آخر من قصيدة في المعنى [٢]

البسيط

أضعـــتـــم الحـــزم فى تدبير أمركم ... ســـتـــعلمـــون مـعـا عقبى البوار غدا
فلـــو رأيـتـم بعين الـــفـــكـر حالكم ... بكيتم بـــدم أن دمـــتـــم بـــــددا
لاكن ســـبل العمى أعمت بصائركم ... فألبستكـــم ثـيـابـــا للبلي جـــددا
يا أمـــــة هـــتكـت مستور سوئتها ... مـــا كل مـــن ذل أعطى بالصغار يدا
فى سورة الحشر آيـــــات مفـصـلـة ... فى شـــأنكم أنـــزلت لم تعدكم أحدا
نعم وفـــي الـــكـهف العشرين خاتمة ... تقضى عـــليكم بأن لا تفلحوا أبدا
فاستشـــــعروا سوء عقباكم فقد شملت ... جميعكم محنة لا تنـقضى أبـــدا

١ = البيان المغرب ٢ : ١٦٧

٢ = نفس المرجع.

Marfat.com

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة يندب بلنسية [١]

الكامل

عاثت بساحتك الظبى يا دار ومحا محاسنك البلى والنار
فإذا تردد فى جنابك ناظر طال اعتبار فيك واستعبار
أرض تقاذفت النوى بقطينها وتمخضت بخرابها الأقدار
فجعلت أنشد خير سادة أهلها لا أنتِ أنتِ ولا الديار ديار

وقال الأستاذ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن خلَصة البلنسي في نفس المعنى [٢]

البسيط

وروضة زرتها للأنس مبتغيا فأوحشتنى لذكرى سادة هلكوا
تغيرت بعدهم خربا وحق لها مكان نوارها أن ينبت الحسك
لو أنها نطقت قالت لفقدهم بان الخليط ولم يرثوا لمن تركوا

---

١ - تخريج : الروض المعطار ص ٤٨

٢ - نفس المرجع .

Marfat.com

وقال أبو المطرف ابن عميرة يبكي بلنسية ويرثي أهلها [١]

البسيط

ما بال دمعك لا ينى[٢] مدراره أم ما لقلبك لا يقر قراره
أللوعة بين الضلوع لظاعن سارت ركائبه وشطت داره
أم للشباب تقاذفت أوطانه بعد الدنو وأخفقت أوطاره
أم للزمان أتى بخطب فادح من مثل حادثه خلت أعصاره
بحر من الأحزان عب عبابه وارتج ما بين الحشا زخاره
في كل قلب منه وجد عنده أسف طويل ليس تخبو ناره
أما بلنسية فمثوى كافر حفت به في عقرها كفاره
زرع من المكروه حل حصاده عند الغدو غداة لج حصاره
وعزيمة للشرك جعجع[٣] بالهدى أنصارها إذ خانه أنصاره
قل كيف تثبت بعد تمزيق العدا آثاره أم كيف يدرك ثاره
ما كان ذاك المصر إلا جنة للحسن تجرى تحته أنهاره
طابت بطيب بهاره آصاله وتعطرت بنسيمة أشجاره
أما السرار[٤] فقد غداه وهل سوى قمر السماء يزول عنه سراره
قد كان يشرق بالهداية ليله والآن أظلم بالضلال نهاره
ودجا به ليل الخطوب بصبحه أعيا على أبصارنا إسفاره

---

١ – الروض المعطار : ص ٥٤

٢ – ونى ينى : فتر وضعف وكلّ وأعيا .

٣ – جعجع البعير: حركه لإناخة وبركه، والبعير برك وقعد.

٤ – السرار آخر ليلة من الشهر والجمع أسرة.

ومن رثاء بلنسية قول ابن الأبار البلنسي [1]

البسيط

ولم يزل أمر بلنسية يضعف باستيلاء العدو على أعمالها إلى أن حصرها ملك برشلونة النصرانى، فاستغاث زيان بصاحب إفريقية أبى زكريا بن أبى حفص، وأوفد عليه فى هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد الله ابن الأبار القضاعى صاحب كتاب «التكملة» و«إعتاب الكتاب» وغيرهما، فقام بين يدى السلطان منشداً قصيدته السينية الفريدة التى فضحت من باراها، وكبا دونها من جاراها، وهي:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا ... إن السبيل إلى منجاتها درسا

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عز النصر ملتمسا

وحاش مما تعانيه حشاشتها ... فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً ... للحادثات وأمسى جدها تعسا

فى كل شارقة إلمام بارقة ... يعود مأتمها عند العدا عرسا

وكل غارة إخجال شائبة ... تثنى الأمان حذارا والسرور أسى

تقاسم الروم لا نالت مقاسمهم ... إلا عقائلها المحْجوبة الأنسا

وفى بلنسية منها وقرطبة ... ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا

مدائن حلها الإشراك مبتسما ... جذلان، وارتحل الإيمان مبتئسا

وصيرتها العوادى[2] العائثات بها ... يستوحش الطرف منها ضعف، ما أنسا

فمن دساكر كانت دونها حرسا ... ومن كنائس كانت قبلها كنسا

١- تخريج: نفح الطيب ٦/ ٢٠٠، أزهار الرياض ٣/ ٧٢

٢ - العائثات: من قولهم: عاثه عن الأمر، أي صرفه عنه ومنعه وعوقه.

Marfat.com

يا للمساجد عادت للعدا بيعا ... وللنداء غدا أثناءها جرسا
لهفي عليها إلى استرجاع فائتها ... مدارساً للمثانى أصبحت درسا
وأربعا نمنمت أيدى الربيع لها ... ما شئت من خلع موشية وكسا
كانت حدائق للأحداق مونقة ... فصوح [1] النضر من أدواحها وعسا
وحال ما حولها من منظر عجب ... يستجلس الركب أو يستركب الجلسا
سرعان ما عاث جيش الكفر وا حربا ... عيث الدبى فى مغانيها التى كبسا
وابتز بزتها [2] مما تحيفها ... تحيف الأسد الضارى لما افترسا
فأين عيش جنيناه بها خضرا ... وأين عصر جلبناه بها سلسا
محاسنها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
ورج أرجاءها لما أحاط بها ... فغادر الشم من أعلامها خنسا [3]
خلا له الجو فامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً ... ولو رأى راية التوحيد ما نبسا
صل حبلها أيها المولى الرحيم فما ... أبقى المراس لها حبلا ولا مرسا
وأحى ما طمست منها العداة كما ... أحييت من دعوة المهدى ما طمسا
أيام صرت لنصر الحق مستبقا ... وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصراً ... كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا

---

١ – صوح : أى يبس وجف وأنواح جمع جمع الدوح وواحدها دوحة وهى الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة.

٢ – من قولهم بز قرينه وابتزه أى غلبه بالقوة وسلبه ما كان لديه وذلك ما يسمى بالعامية المصرية البلطجة فهو بلطجى وتحيف أى أخذ.

٣ – الخنس الظباء ويقصد به الجبان الخائف.

Marfat.com

تمحو الذى كشف التجسيم من ظلم ... والصبح ماحية أنواره الغلسا
وتقتضى الملك الجبار مهجته ... يوم الوغى جهرة لا ترقب الخلسا
هذى رسائلها تدعوك من كثب ... وأنت أفضل مرجو لمن يئسا
وافتك جارية بالنجح راجية ... منك الأمير الرضا والسيد الندسا[1]
خاضت خضارة[2] يعليها ويخفضها ... عبابه فتعانى اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عانية ... كما طلبت بأقصى شده الفرسا
تؤم يحيى بن عبد الواحد بن أبى ... حفص مقبلة من تربه القدسا
ملك تقلدت الأملاك طاعته ... دينا ودنيا فغشاها الرضا لبسا
من كل غاد على يمناه مستلما ... وكل صاد إلى نعماه ملتمساً
مؤيد لو رمى نجما لأثبته ... ولو دعا أفقاً لبى وما احتبسا
تالله إن الذى تزجى السعود له ... ما جال فى خلد يوما ولا هجسا
إمارة يحمل المقدار رايتها ... ودولة عزها يستصحب القعسا
يبدى النهار من ضوئه شنباً ... ويطلع الليل من ظلمائه لعسا[3]
ماضى العزيمة والأيام قد نكلت ... طلق المحيا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدر والعلياء هالته ... تحف من حوله شهب القنا حرسا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعرف معروفه واسى الورى وأسا

---

١ = الندس الذى يخالط الناس دون أن يثقل عليهم

٢ = خضارة إذا جاءت بدون التعريف فهى من أسماء البحر وسمى بذلك لخضرة مائه.

٣ = الشنب جمال الثغر وصفاء الأسنان.

Marfat.com

قـامـت على العدل والإحسان دولته وأنـشـرت من وجود الجود ما رمسا
مـبـارك هـديـه بـاد سـكـينته ما قـام إلا إلى حسنى ومـا جلسا
قد نور اللّـه بـالتـقوى بـصـيـرته فـمـا يـبالى طـروق الخطب ملتبسا
بـرى العـصـاة وراش الطائعين فقل فى اللـيـث مفترسا والغيث مرتجسا
ولـم يـغـادر عـلى سهل ولا جبل حيا لـقـاحـا إذا وافـيـتـه بـخسا
فـرب أصـيـد لا تلقى به صيداً ورب أشـوس لا تلقـى لـه شوسا[1]
إلـى المـلائك يـنمى والملوك معا فـى نـبعة أثمرت للمجد ما غرسا
من سـاطـع الـنور صاغ اللّه جوهره وصـان صيقـله أن يـقرب الدنسا
له الثرى والثريا خـطـتـان فـلا أعـز مـن خـطتيه مـا سما ورسا
حسب الذى باع فى الأخـطـار يركبها إليه محـيـاه أن البـيـع ما وكسا[2]
إن السعـيـد امـرؤ ألقى بحضرته عـصـاه محـتزما بالعدل محترسا
فـظـل يـوطن من أرجـائها حرما ويـات يوقـد مـن أضـوائها قبسا
بشرى لعبـد إلى الـبـاب الكريم حدا آمـالـه ومـن العذب المعين حسا
كأنما يـمـتـطى واليـمـن يـصحبه من الـبـحـار طـريـقا نحوه يـبسا
فـاستـقبل الـسعد وضاحا أسرّته من صفحة فاض منها النور وانعكسا
وقـبـل الجـود طـفّـاحا غواربه من راحة غـاص فيها البحر وانغمسا

١ - الصيد داء بالعنق لايستطاع معه الالتفات والأصيد المتكبر المزهو بنفسه والأشوس هو الأشد.
٢ - بيع الوكس بيع الخسارة والوكس النقص والخسارة.

Marfat.com

يـــا أيـــهـــا المـلـك المنصور أنت لها ... عـــلـــيـــاء تـوسع أعـداء الهدى تعسا
وقد تـــواتـــرت الأنبـــاء أنـــك مـن ... يحيي بـقتل ملوك الصفر[1] أندلسا
طـهـــر بـــلادك منـهـم إنـهـم نجـس ... ولا طـهـارة ما لـم تـغسل النجسا
وأوطـئ الـفـيـلـق الجـــرار أرضهم ... حتي يـــطـأطئ رأسا كل من رأسا
وانصـــر عبيداً بأقصى شـــرقها شرقت ... عيـــونهم أدمعـــا تهمى زكا وخسا[2]
هم شيعة الأمر وهي الـدار قـد نهكت ... داء متى لـم تباشر حسمه انتكسا
فـــاملأ هنيئاً لك الـتـــايـيد ســاحتها ... جـــردا سـلاهب[3] أو خـطيـة دعسا
واضـــرب لـــهـــا موعدا بالفتح ترقبه ... لـعـل يوم الأعادى قد أتى وعسى

ومن رثاء طليطلة قول ابن العسال اليحصبي[4]

وقد قال بعض الشعراء - وهو عبد الله بن فرج ابن العسال - حين أخذت طليطلة ، وكانت من أول ما أخذ من القواعد العظام ، يخاطب أهل الأندلس .

البسيط

يأهـــل أنـــدلـس شـــدوا رحـــالكم ... فـمـــا الـمـقـام بـهـا إلا من الغلط
السلـــك يـنـثـر من أطرافـــه وأرى ... سلـك الجزيرة منثوراً من الـوسط
من جـــاور الشر لا يأمن بـــوائـقـه ... كيف الحـيـاة مع الحيات فى سفـط[5]

---

١ - الصفر لقب الروم ويراد به الافرنج.

٢ - الخسا الفرد يقال خسا أو زكا أي فرد أو زوج.

٣ - السلاهب واحدها سلهب وهوالطويل من الناس والخيل والدعس الدوس والدعس من الرجال الطعان.

٤ = نفح الطيب ٨٤/٦ ، أزهار الرياض ٣٢/٣.

٥ = البوائق واحدها بائقة وهى الداهية والشر، والسفط وعاء من قضبان الشجر ونحوها توضع فيه الأشياء.

Marfat.com

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة ويرثي أهلها [١]

الوافر

لشكلك كيف تبتسم الثغور ... سروراً بعد ما بئست ثغور [٢]

أما وأبى مصاب هد منه ... ثبير الدين فاتصل الثبور [٣]

لقد قصمت ظهور حين قالوا ... أمير الكافرين له ظهور

ترى فى الدهر مسروراً بعيش ... مضى عنا لطيته السرور

أليس بها أبى النفس شهم ... يدير على الدوائر إذ تدور

لقد خضعت رقاب كن غلبا ... وزال عتوها ومضى النفور

وهان على عزيز القوم ذل ... وسامح فى الحريم فتى غيور

طليطلة أباح الكفر منها ... حماها، إن ذا نبأ كبير

فليس مثالها إيوان كسرى ... ولا منها الخورنق والسدير [٤]

محصنة محسنة بعيد ... تناولها ومطلبها عسير

ألم تك معقلاً للدين صعبا ... فذللّه كما شاء القدير

وأخرج أهلها منها جميعاً ... فصاروا حيث شاء بهم مصير

وكانت دار إيمان وعلم ... معالمها التى طمست تنير

---

١ - تخريج : فتح الطيب ٦/٢٢٨.

٢ - الثغور فى الشطر الأول هى الأفواه وفى الشطر الثانى هى الحدود وبئست من باب علم يعلم والمصدر البؤس أى الشقاء.

٣ - الثبر الثبور هو الهلاك.

٤ - إيوان كان قصر الملوك الفرس والخورنق والسدير قصر ان كانا لملوك الحيرة من المناذرة.

Marfat.com

فعادت دار كفر مصطفاة ... قد اضطربت بأهليها الأمور
مساجدها كنائس، أى قلب ... على هذا يقر ولا يطير؟
فيا أسفاه يا أسفاه حزناً ... يكرر ما تكررت الدهور
وينشر كل حسن ليس يطوى ... إلى يوم يكون به النشور
أذيلت قاصرات الطرف كانت ... مصونات مساكنها القصور
وأدركها فتور فى انتظار ... لسرب فى لواحظه فتور
وكأن بنا وبالقينات أولى ... لو انضمت على الكل القبور
لقد سخنت بحالتهن عين ... وكيف يصيح[1] مغلوب قرير
لئن غبنا عن الإخوان إنا ... بأحزان وأشجان حضور
نذور كان للأيام فيهم ... بمهلكهم فقد وفت النذور
فإن قلنا العقوبة أدركتهم ... وجاءهم من الله النكير
فإنا مثلهم وأشد منهم ... نجور وكيف يسلم من يجور
أنأمن أن يحل بنا انتقام ... وفينا الفسق أجمع والفجور
وأكل للحرام ولا اضطرار ... إليه فيسهل الأمر العسير
ولكن جرأة فى عقر دار ... كذلك يفعل الكلب العقور
يزول الستر عن قوم إذا ما ... على العصيان أرخيت الستور

١ = وفى المطبوع من النفح يصح والأصوب ما أثبت.

Marfat.com

يطول على ليلى، رب خطب ... يطول لهوله الليل القصير
خذوا ثأر الديانة وانصروها ... فقد حامت على القتلى النسور
ولا تهنوا وسلوا كل عضب ... تهاب مضاربا عنه النحور
وموتوا كلكم فالموت أولى ... بكم من أن تجاروا أو تجوروا
أصبراً بعد سبى وامتحان ... يلام عليهما القلب الصبور
فأم الصبر مذكار ولود ... وأم الصقر مقلاة نزور[1]
تحور إذا دهينا بالرزايا ... وليس بمعجب بقر يخور
ونجبن ليس نزأر، لو شجعنا ... ولم نجبن لكان لنا زئير
لقد سائت بنا الأخبار حتى ... أمات المخبرين بها الخبير
أتتنا الكتب فيها كل شر ... وبشرنا بأن حسنا البشير
وقيل تجمعوا الفراق شمل ... طليطلة تملكها الكفور
فقل فى خطة فيها صغار ... يشيب لكربها الطفل الصغير
لقد صم السميع فلم يعوّل ... على نبإ كما عمى البصير
يجاذبنا الأعادى باصطناع ... فينجذب المخول والفقير
فباق فى الدبانة تحت خزى ... تشبطه الشويهة والبعير[2]
وآخر مارق هانت عليه ... مصائب دينه فله السعير

---

١ – الشطر الثاني من البيت هو الشطر الثاني من بيت الشاعر الحماسي الذى يقول :

بغاث الطير أكثرها فراخاً ... وأم الصقر مقلاة نزور

٢ – الدبانة والدبن : الخطيرة من القصب خاصة ، والشويهة : تصغير الشاة.

Marfat.com

كفى حزنا بأن الناس قالوا إلى أين التحول والمسير
أنترك دورنا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور
ولا ثم الضياع تروق حسنا نباكرها فيعجبنا البكور
وظل وارف وخرير ماء فلا قر هناك ولا حرور
ويؤكل من فواكهها طرى ويشرب من جداولها نمير
يؤدى مغرم فى كل شهر ويؤخذ كل صائفة عشور
فهم أحمى لحوزتنا وأولى بنا وهم الموالى والعشير
لقد ذهب اليقين فلا يقين وغر القوم بالله الغرور
فلا دين ولا دنيا ولكن غرور بالمعيشة ما غرور
رضوا بالرق يالله ماذا رآه وما أشاربه مشير
مضى الإسلام فابك دما عليه فما ينفى الجوى الدمع الغزير
ونح واندب رفاقا فى فلاة حيارى لا تحط ولا تسير
ولا تجنح إلى سلم وحارب عسى أن يجبر العظم الكسير
أنعمى عن مراشدنا جميعا وما إن من هم إلا بصير
ونلقى واحداً ويفر جمع كما عن قانص فرت حمير
ولو أنا ثبتنا كان خيرا ولكن مالنا كرم وخير

إذا ما لم يكن صبر جميل فليس بنافع عدد كثير
ألا رجل له رأى أصيل به مما نحاذر نستجير
يكر إذا السيوف تناولته وأين بنا إذا ولت كرور
ويطعن بالقنا الخطار حتى يقول الرمح ما هذا الخطير
عظيم أن يكون الناس طرا بأندلس قتيل أو أسير
أذكر بالقراع الليث حرصا على أن يقرع البيض الذكور
يبادر خرقها قبل اتساع لخطب منه تنحسف البدور
وسّع للذى يلقاه صدرا فقد ضاقت بما تلقى صدور
تنغصت الحياة فلا حياة وودع جيرة إذ لا مجير
فليل فيه هم مستكن ويوم فيه شر مستطير
ونرجو أن يتيح الله نصرا عليهم، إنه نعم النصير

Marfat.com

وقال ابن حمديس الصقلي يرثي ابن عباد الإشبيلي [١]

الطويل

جـــرى بـــك جـد بـــالكرام عثور ... وجـــار زمـــان كـــنـــت فيه تجـير
لقد أصبحت بيض الظبا فـــى غمودها ... إنـــاثـاً لتـــرك الضرب وهي ذكور
تجـــئ خـــلافاً للأمـــــور أمـــورنا ... ويـــعـــدل دهـر فـى الورى ويجور
أتـــيـــأسُ فى يـــوم يـنـاقض أمسه ... وزُهر الدرارى فـــى الـــبـــروج تدور
وقد تنتخى[٢] السادات بعد خمولها ... وتـــخـــرج من بـــعـــد الكسوف بدور
لـــئـــن كـــنـــت مقصوراً بدار عمرتها ... فقد يقصـــر الـــضـــرغام وهو هصور
أغر الأســـــارى أن يـــقـال محمد ... غـــريـــب بـــأرض المغـربيـــن أسير
تنافس مـــــن أغـلالها فى فـكـاكها ... يقصـم مـــنـهـــا بـــالـمـصـاب ذكور
وكنت مسجـى بـالـظبـا من سجونها ... بـــســـور لـــهـــا إن السجون قبور
إلـــى الـــيـــوم لم تذعر قطا الليل قرح ... يغير بـــهـا عـــنـــد الـــصـباح مغير
ولا راح نـــــاد بـــالـمـكـارم للـغنى ... يـــقـلـبـــه فـــى الراحتين فـقـيـــر
لقـد صـنـــت ديـــن الله خير صيانة ... كأنـــك قـــلـــب فـيـــه وهـــو ضمير
ولما رحلتم بـــالـنـــدى فـــى أكـفكم ... وقـــلـــقـل رضـــوى منكم وثـبـير
رفعـــت لـــســـانى بالقيامة قد أتت ... ألا فـــانظـــروا هـذى الجبال تسير

---

١ – تخريج : ديوانه ص ٢٦٨ ، ويقال إن المعتمد كتب إليه وهو أسير :

غريب بأرض المغربين أسير # سيبكى عليه منبر وسرير

يقتضيه الجواب فجاوبه فقال هذه الأبيات .

٢ – الانتخاء : التعاظم والتكبر .

Marfat.com

ومن ذلك قصيدة ابن عبدالصمد بكى بها على قبر ابن عباد الإشبيلى

وقال ابن الصيرفى : لما انفصل الناس من مصلى العيد الذى توفى المعتمد فى شهره، حف بقبره ملأ من الناس، يتوجعون له، ويترحمون عليه وأقبل شاعره ابن عبدالصمد فى جملتهم؛ وقد اتفق حضوره يومئذ لبعض شأنه؛ فوقف على قبره، وأنشد[1] :

الكامل

ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عواد
لما خلت منك القصور فلم تكن ... فيها كما قد كنت فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعاً ... وتخذت[2] قبرك موضع الإنشاد

ثم خر يبكى ويعفر وجهه فى تراب قبره قال: فبكى ذلك الملأ حتى أخضلوا ملابسهم، وارتفع نشيجهم وعويلهم، ومتع[3] النهار. فلله در ابن عبد الصمد، وملأ ذلك البلد وتمام رثائه :

قد كنت أرجو أن تبرد أدمعى ... نيران حزن أضرمت بفؤادى
فإذا بدمعى كلما أجريته ... زادت على حرارة الأكباد
يا أيها القمر المنير أهكذا ... يمحى ضياء النير الوقاد
إنى لأعجب بعد فقدك كيف لا ... تستنكر الأسياف فى الأغماد
أو يخضب الخطى بعدك ثغره ... أو يركع الهندى فوق الهاد[4]
أو تلتقى الشجعان تحت عجاجة ... أو يقتضى الميدان سبق جواد

---

١ – أعمال الأعلام ص ١٦٥ وقلائد العقيان ص ٣١

٢ – وأصلها : اتخذت حذفت الألف .

٣ – متع النهار : ارتفع.

٤ – الهاد : العنق

٥٢

قد كانت الأمداح يجعل درها ... في كف أى مميز نقاد
من يفتح الأمصار بعد محمد ... من يعقد الرايات للقواد
من يطعن النجلاء فى المراق أو ... من يضرب الأخدود فى المراد [1]
من يترك الأسطار في الأوراق مث ... ل الحلي فى اللبات والأجياد
من يفهم المعنى الخفى ومن له ... صدق الحديث وصحة الإيراد
من يلبس الحصداء [2] وهي حصينة ... وكأنما هي من عيون جواد
ويقلد الصمصام وهو منمق ... بفريد إفرند وحلي نجاد
من ذا يمد على العفاة ظلاله ... ويبلغ الآمال كل مراد
من يبذل الآلاف للزوار والـ ... ـمداح والقصاد والرواد
هيهات مات الجود بعد محمد ... وأصاب بز [3] الفهم كل كساد
ودجا الزمان وأقحطت أيامه ... فالجدب موجود بكل مراد
مسخ الزمان بأهله فتعوضوا ... من ذلك الإصلاح بالإفساد
يا ساكن القبر الذى فقدانه ... قتل الرجاء وفت فى الأعضاد
كنا نؤمل أن نرى لك عودة ... تعطى بها الأيام كل قياد
وتبيت خيلك فى مرابطها على ... وعد من الإتهام والإنجاد
وتمهد السلطان فى الأقطار ... للأصهار والحفداء والأولاد

---

١ – طعنة نجلاء : واسعة والمراق طعنة عاجلة والأخدود خربة شديدة والمراد بتشديد الراء : العنق.
٢ – الحصداء : الدرع شديد الفتل مستحكم الصناعة.
٣ – بز الفهم : مسلوبه.

Marfat.com

فإذا المنايا قاطعات بالمنى ... والدهر لا يردى سوى الأجواد
قد كان هز الرمح عطفى قده ... وأبى الحسام العضب من إغماد
أفقدت عينى مذ فقدت إنارة ... فمجالها فى ظلمة وسواد
ما كان ظنى قبال موتك أن أرى ... قبراً يضم شوامخ الأطواد
الهضبة الشماء تحت ضريحه ... والبحر ذوالتيار والأزياد
عهدى بملكك وهو طلق ضاحك ... متهلل الصفحات للقصاد
والمال ذوشمل مذاد والندى ... يهمى وشمل المجد غير مذاد [1]
أيام تخفق حولك الرايات فو ... ق كتائب الرؤساء والأجناد
والأمر أمرك والزمان مبشر ... بممالك قد أذعنت وبلاد
والخيل تمرح والفوارس تنحنى ... بين الصوارم والقنا الميّاد
إذ تحسب الهيجاء روضاً يانعاً ... وترى الأزاهر من ضياء صعاد
وتخال عنبرها دخان الند قد ... فغم [2] الأنوف وعام فوق النادى
وكان بيض المرهفات على الطلى ... ورق الحمام على الغصون شواد
ولكم هززت الغصن من طرب لها ... وجررت أذيالاً من الأزراد [3]
وسقيت رمحك ثم من ماء الطلى ... وروى حسامك من بنات الهاد

---

١ – المذاد : من الذود وهو الدفاع والحماية .
٢ – فغم : من قولهم : فغم الروح أنفه : فتحه وملأه .
٣ – الإزراد : اللين .

Marfat.com

وكأنما في الدرع منك ربيعة ... بن مكدم والحارث بن عباد [1]
حتى إذا ما الدهر أظهر حقده ... والدهر للأحرار ذو أحقاد
ألقت بأيديها معاقلك التي ... ملئت من العقبان والآساد
وتهدمت أركان كل سياسة ... وانهد حول الملك كل عماد
قالوا أضاع الحزم وهي بواطل ... نور الحقائق للنواظر باد
وإذا انقضت أيام ملك فالعنا ... في غاية الإكثار والإعداد
حازت بنو العباس ملك أمية ... وهم ذوو الأعداد والأمداد
ورأى معاوية عليا هالكاً ... وعلى الليث الهزبر العاد
والدهر أذهب تبعاً وجنوده ... وأزال ملك الأرض عن شداد
وتصاهلت بهم الجياد إلى الوغى ... وتضاحك الأنجاد للأنجاد
إذ حان حين العز أدركك الردى ... فكأن موتك كان بالمرصاد
لو كنت إذ ساروا بنعشك حاضراً ... لرأيت تهليلا على الأعواد
إني لأعجب من ضجيعتك [2] التي ... قد كان قربك أنسها في الناد
جاورتها في قبرها فكأنما ... قد كنتما في ذا على ميعاد
راحت وأنقلك النوى من بعدها ... فمشيت إليها فوق نعشك غاد
جمعتكما آغمات في الترب الذي ... وسدتما منه بأي وساد

---

١ – وهما كلاهما من العرب الفرسان الشجعان .

٢ – الضجيعة : هي المضاجعة معه وهي زوجته التي ماتت قبله فدفن بجوارها .

Marfat.com

أم الملوك أما علمت بزائر ... لك ذى وفاء مخلص ووداد
أبكى العلى والمجد فقدكما الذى ... لبست له الدنيا ثياب حداد
لهفى على تلك السجايا إنها ... زهر الربا موشية الأبراد
لهفى على تلك العطايا واللهى[1] ... كم أخجلت من واكفات غواد
كم نعمة خضراء قد ألبستنى ... ومواهب والتيتها وأياد
ناديت كفك طامياً مستمطراً ... فقضى على نداك باستعباد
أخجلت فى الجود الذى دفقت حا ... تم طيى؛ وفضحت كعب إياد[2]
قد كنت لا أرضى البحار مناهلى ... زهواً ولا أرضى السماك مهادى
فى دولة غراء عبادية ... فللت من الأملاك كل عناد
ورياسة تحمى البلاد رئيسها ... يوماه يوم ندى ويوم جلاد
والبدر ترسى والثريا معقلى ... والصبح سيفى والرياح جيادى
أغرقتنى فى بحرك الطامى الذى ... منع الظماء ورود كل ثماد
وسللت فى نصرى سيوف مكارم ... تركت سيوف الهند غير حداد
عادت بحاراً إذ سقيت ضحاضحى[3] ... وغدت هضاباً إذ رفعت وهادى
ومددت كفى للكواكب قاعداً ... فبلغتها لما غدوت مصادي[4]
نفقتنى والدهر يبخس قيمتى ... وأنفت من رخصى به وكسادى

---

١ – اللهى : واحدها لهوة وهي العطية والمنحة .
٢ – حاتم طئ وكعب الإيادي من العرب الكرماء الأسخياء المضرب بهم المثل في الكرم والسخاء .
٣ – الضحاضح : واحدها ضحضح وهو السراب .
٤ – المصاد : مكان الصيد وأعلى الجبل .

وأقمتنى لما رأيت حوا ... دث الأيام قد أسرفن فى إقعادى
فالجفن بعدك ليس يدرى ما الكرى ... فى دمعة منهلة وسهاد
وكأن قلبى فى مخالب طائر ... وكأن جنبى فوق شوك قتاد
إن لم تطب فيك المراثى والثنا ... منى فلست بطيب الميلاد
أو فزت من ذاك الجمال بنظرة ... لجعلتها حتى القيامة زادى
إن السيادات التي قد حزتها ... تركتك منفرداً بلا أنداد
ولئن مضيت فإن ذكرك خالد ... يبقى مع الأيام والآباد
يا صاحب الفقر[1] التى قد أصبحت ... زهر الرياض بضفتى بغداد
راقت وجوه الكتب بالنكت التى ... منعت زنادك ثم من إصلاد
لما فقدت المثل آثرك الردى ... ومن الصحيح تنافر الأضداد
شقوا الثياب وجددوا أحزانكم ... وصلوا التلهف يا بنى عباد
كم رد ريح الخطب عنكم ظله ... وحماكم من مثل عاصف عاد
لولا أمير المسلمين وفضله ... لم تكتحل أجفانكم برقاد
والله يبقيه لكم ليصونكم ... من كل حادثة تخاف فؤادى
أبقى عليكم ستره وأقالكم ... قد يشفق الأمجاد للأمجاد
كان ابن عباد صباحاً مسفراً ... لغياهب إن أظلمت ودآد[2]

---

١ – الفقر : واحدها فقرة وهي نكتة من قولهم ما أحسن فقر كلامه أي نكته .
٢ – الصلد : الصلب الأملس الشديد ، والجمع أصلاد.
٣ – الدآد : واحدها دأداء وهي ليلة شديدة الظلمة.

Marfat.com

كم بات منه البحر تحت سكينة ... والطود ذو الهضبات فوق وساد
ما كان إلا الروض موشي الحلى ... سقيت أزاهره بصوب عهاد[1]
بهتز عند الحمد معطفه كما ... يهتز عطف الأملد الميّاد
يا موت لم تترك حنيفاً مسلماً ... صعب اللقاء على ذوي الألحاد
قد كان من أعلى الملوك رياسة ... وفؤاده من أورع الزهاد
يا موت لم تشفق لغربته ولم ... تر ما تخلفه من الأولاد
ما ورث الأبناء إلا مجده ... إن العلى ميراث كل جواد
كنا نفدى موته بنفوسنا ... لو كان يقبل فيه منا الفادى
يا موت كيف رأيت صبر محمد ... قبل احتلالك كان فى استعداد
كم رام فى رجب لقاءك جاهداً ... والحظ ليس ينال دون جهاد
أهوى الشهور سواء فهو أذلنى ... وأحب أيامى سوى الآحاد
صبراً جميلا يا بنيه فربما ... نال المنى قوم بلا ميعاد
إنى نظمت لكم لآلىء قولة ... عرضت على الأيام صفو وداد
ولقد تمازج حبكم بجوانحى ... كتمازج الأرواح بالأجساد
فسقى انسكاب الغيث قبر أبيكم ... من رائح متدفق أو غاد
ولقد رثيت وما قضيت حقوقكمو ... والله يعلم ما يكن فؤادى

---

١ – العِهاد : واحدها عهدة بفتح العين وهي مطر أول السنة .

Marfat.com

ومن المراثي الأندلسية الرائعة

قول ابن عبدون اليابري يرثي بني الأفطس أصحاب بطليوس [١]

البسيط

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

أنهاك أنهاك لا آلوك موعظة ... عن نومة بين ناب الليث والظفر

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة ... والبيض والسود مثل البيض والسمر [٢]

ولا هوادة بين الرأس تأخذه ... يدا الضراب وبين الصارم الذكر

فلا تغرنك من الدنيا نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر

ما لليالي - أقال الله عثرتنا - ... من الليالي وخانتها الغير

في كل حين لها في كل جارحة ... منا جراح وإن زاغت عن النظر

تسر بالشيء لكن كي تغر به ... كالإيم ثار إلى الجاني من الزهر

كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك - من خبر [٣]

هوت بدارا وثلت غرب قاتله ... وكان عضباً على الأملاك ذا أثر [٤]

واسترجعت من بني ساسان ما وهبت ... ولم تدع لبني يونان من أثر [٥]

وألحقت أختها طسماً ، وعاد على ... عاد وجرهم منها ناقض المرر [٦]

وما أقالت ذوي الهينات من يمن ... ولا أجارت ذوي الغايات من مضر [٧]

---

١ - تخريجها : المعجب ص ١٢٩ ، القلائد ص ٣٠٢ ، أعمال الأعلام ص ٣٤ ، تاريخ الأدب الأندلسي ص ١١٨، وذكر أنها في الذخيرة - القسم الثاني - المخطوط ص ٢٨٦

٢ - البيض الأولى هي الأيام والثانية هي السيوف .

٣ - الضمائر كلها لليالي وهي فاعل لم تبق .

٤ - دارا : اسم ملك من ملوك الفرس وأصله داريوش قد قتله الإسكندر اليوناني الذى تغلب على سائر الملوك من عهده ومات وله بضع وثلاثون من العمر .

٥ - بنو ساسان : هم أكاسرة فارس حكموها إلى أن فتحها المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه ، وبنو يونان هم الأسر المالكة التى حكمت اليونان ثم انقرضت .

٦ - طسم وجديس وعاد : من قبائل العرب البائدة ، وجرهم هم أصهار سيدنا إسماعيل عليه السلام ، وناقض المرر هو الدهر .

٧ - ذوي الهينات : أصحاب الأحوال والجماعات ، وذوي الغايات : أصحاب الأهداف ، ومضر : من قبائل العرب القديمة في الشمال .

Marfat.com

ومـــزقـــت سبـــأ في كل قاصية فمـا الـتـقـى رائـــح منهم بمبتكر [١]
وأنفذت في كليب حكـــمـــها ورمت مهلـــهـــلاً بين سمع الأرض والبصر [٢]
ولـــم تـــرد على الضليل صحته ولا ثنت أســـداً عـــن ربهـــا حجر [٣]
ودوخـــت آل ذبـــيـــان وإخـوتهم عبساً ، وغصت بني بدر على النـهـر [٤]
وألحـــقـــت بـعـدي بالعراق على يد ابنه أحمر العينين والـشـعـر [٥]
وأهلكت إبرويـــــزاً بابنه ورمت بيـــزدَجـــرد إلى مروٍ فلم يحر [٦]
وبلغت يزدجر الصين واختـــزلت عنه ســـوى الـفرس جمع الترك والخزر
ولـــم تـــرد مواضى رستم وقنا ذى حاجب عنه ســـعداً في ابنة الغير [٧]
يوم القليب بنو بـــدرٍ فنوا وسعى قليب بدر [٨] بمـن فـيـه إلـى سقر
ومزقت جعفراً بالبيض واختـلست من غيله حمزة الـظـلام للجزر [٩]
وأشرقت بخبيب فـوق فـارعة وألصقت طلحة الفياض بالعفر [١٠]
وخـضـبـت شيب عثمانٍ دماً وخطت إلى الزبير ولم تستحـــي من عمر [١١]

---

١ – سبأ : قوم حكموا اليمن وبنوا بها سد مأرب وعصوا ربهم فمزقهم وبددهم ، والمبتكر : الذى يخرج مبكراً وهو ضد الرائح الذى يخرج مساء .
٢ – كليب : هو ابن ربيعة من وائل وقتله جساس أحد بنى تغلب فنشأت حرب البسوس بين القبيلتين دامت أربعين عاماً .
٣ – الضليل : هو لقب إمرؤ القيس ، وأسد قبيلته التى قتلت أباه حجراً.
٤ – إشارة إلى حرب داحس والغبراء التى كانت بين عبس وذبيان وبدر بطن من ذبيان .
٥ – عدى بن زيد العبادى الشاعر : حبسه ملك الحيرة ثم قتله ، فشكا ابنه زيد بن عدى إلى كسرى برويز الذى قتل ملك الحيرة ، وكان قد ألقاه بين أرجل الفيلة فوطئته حتى مات ، أحمر العينين والشعر : هو الفيل .
٦ – إبريز أو برويز بن هرمز : هو كسرى فارس قتله ابنه شيرويه ، ويزدجرد : هو آخر ملوك فارس قتل في معركة حربية مع المسلمين .
٧ – رستم الأرمنى : كان قائد جيش الفرس يوم القادسية ، وذى حاجب : هو خرداذبه صاحب الراية يوم القادسية وكان قائد الجيش الإسلامي سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه .
٨ – يوم القليب : يوم بدر قتل فيه المشركون .
٩ – جعفر : هو ابن أبى طالب استشهد يوم مؤتة ، وحمزة هو ابن عبد المطلب وعم رسول الله ص استشهد يوم أحد ، وظلام الجزر : كناية عن السخي والكرم.
١٠ – خبيب بن عدي الأنصاري رضي الله عنه استشهد مصلوباً بمكة ، وطلحة بن عبد الله التميمي رضي الله عنه أحد العشرة المبشرة بالجنة قتل يوم الجمل . وفارعة : طويلة.
١١ – إشارة إلى استشهاد عمر وعثمان والزبير رضي الله عنهم.

ولا رعت لأبى اليقظان صحبته ... ولم تزوده إلا الضيح في الغمر[١]

وأجزرت سيف أشقاها أبا حسن ... وأمكنت من حسين راحتي شمر[٢]

وليتها إذ فدت عمراً بخارجة ... فدت علياً بمن شاء من البشر[٣]

وفي ابن هند وفي ابن المصطفى حسن ... أتت بمعضلة الألباب والفكر[٤]

فبعضنا قائل ما اغتاله أحد ... وبعضنا ساكت لم يؤت من حصر[٥]

وأردت ابن زياد بالحسين فلم ... يبؤْ بشسع له قد طاح أو ظفر[٦]

وعمت بالظبى فودى أبى أنس ... ولم ترد الردى عنه قنا زفر[٧]

وأنزلت مصعباً من رأس شاهقة ... كانت بها مهجة المختار في وزر[٨]

ولم تراقب مكان ابن الزبير ولا ... راعت عياذته بالبيت والحجر[٩]

وأعملت في لطيم الجنّ حيلتها ... واستوسقت لأبى الذبان ذى البخر[١٠]

ولم تدع لأبى الذبان قاضبه ... ليس اللطيم لها عمرو بمنتصر[١١]

---

١ – أبو اليقظان : كنية عمار بن ياسر رضي الله عنه ، قتل يوم صفين .

٢ – يشير إلى استشهاد على وابنه الحسين رضى الله عنهما ، وأشقى البرية : هو ابن ملجم. وشمر ذو الجوشن قاتل حسين رضى الله عنه.

٣ – اتفق الخوارج على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص رضى الله عنهم ، فقتل ابن ملجم علياً رضى الله عنه ، والحجاج بن عبد الله الصريمي فشل وفيما أراد ، وأخطأ زانويه الفارسى فقتل خارجة بدل عمرو.

٤ – ابن هند : هو معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه ، وحسن : هو ابن علي رضى الله عنهما ، ومعضلة : مشكلة صعبة.

٥ – الحصر العي وفيه إشارة إلى ما ارتاب المسلمون في ميتة الحسن رضى الله عنه .

٦ – ابن زياد : هو عبيد الله ، ولم يبؤ : لم يرجع ، والشسع : رباط النعل .

٧ – أبو أنس : هو الضحاك بن قيس الفهري قتله عبد الملك بن مروان يوم مرج راهط وفر صاحبه زفر بن الحارث الكلابي ، والظبي جمع ظبية وهي حد السيف أو السيف نفسه ، وفود : هو جانب الرأس ، والردى هو الهلاك .

٨ – يشير إلى قتل مصعب بن الزبير رضى الله عنه ، والمختار بن عبيد الله الثقفي .

٩ – إشارة إلى قتل عبد الله بن الزبير رضى الله عنه العائذ ببيت الله.

١٠ – لطيم الجن : هو عمرو بن سعيد الأموي الأشدق وأبو ذبان : هو عبد الملك بن مروان ، والبخر : النتن.

١١ – القاضب : السيف ويريد أن يقول : إن الليالى لم تدع لعبد الملك سيفه ، كما أنها لم تسمح لعمرو الأشدق أن ينتصر.

وأحـــرقـــت شلو زيد بعد ما احترقت عليـــه وجداً قلوب الآي والسـور[١]
وأظـفـرت بالـوليد بن اليزيد ولم تبق الخـــلافة بين الكأس والوتر[٢]
حبابة حب رمـان أتيـح لـــهـــا وأحمر قـــطـــــرته نفحة القطر[٣]
ولم تعد قضب الـسـفـــاح نائـيـة عن رأس مروان أو أشيـاعه الفجر[٤]
وأسبلت دمعـة الـــــروح الأمين على دم بفخ لآل المصـطـــفـــى هدر[٥]
وأشرقت جـــعـــفـراً والفضل ينظره والشيخ يحيى بريـق الصارم الذكر[٦]
وأخفرت فى الأمين العهد ، وانتدبت لجعفر بابنه والأعـــبـــد الـغـــدر[٧]
وما وفت بعـــهـــود المستعين ولا بمـــا تـأكـــد للمـعـتز من مرر
وأوثـــقـت فـي عراها كل معتمد وأشـــرقـــت بـــقـذاها كل مقتدر
وروعت كل مـأمون ومـــؤتمـــن وأسلمت كل منصور ومـــنـــتصر
وأعـــثـرت آل عـبـــاد لعاً لهم بـــذيل زباء لم تنفر من الـذعـر[٨]
بنى المظفر والأيـــــام - لا نزلت - مـــــراحل ، والورى منها على سفر[٩]
سحقاً ليومكم يوماً ولا حـــملـت بمثـــلـــه ليـــلـة فـي غابر العمر
مـــن لـــلأسرة ، أو من للأعنة ، أو من للأسنة يهديها إلـى الـثـغر
من للظبي وعـــوالى الخط قد عقدت أطراف ألسنها بالعي والحـــصـر
وطـوقت يـــالمـنـــايا السود بيضـهم فاعجب لذاك وما منها ســـوى الذكر

١ - زيد ابن علي بن الحسين رضى الله عنهم خدعه الكوفيون فقتل سنة ١٢٢هـ ، والشلو : العضو.
٢ - يشير إلى الوليد بن يزيد الأموي وكان مسرفاً في شهواته . ٣ - حبابة هي قينة يزيد بن عبد الملك الأموي ، وظنها ابن عبدون للوليد وليس كذلك.
٤ - والسفاح : هو أبو العباس الخليفة العباسي الأول ، ومروان هو آخر الخلفاء الأمويين ، وقضب جمع قاضب وهو السيف . ٥ - فخ : موضع قرب مكة قتل به ثلاثة من أهل البيت .
٦ - إشارة إلى البرامكة ونكبتهم . ٧ - إشارة إلى أولاد هارون العباسي ، وفي الأبيات التالية إشارة إلى مقاتل الخلفاء العباسيين . ٨ - (لعاً) كلمة يعبر بها عن التوجع .
٩ - بنو المظفر : هم بنو الأفطس ، وهم عمر المتوكل وابناه الفضل والعباس .

مـــن للـــيـــراعـــة أو من للبراعة أو ... مـــن للسماحـــة أو للـنفع والضرر
أو دفع كارثـــة أو ردع آزفـــة ... أو قمع حادثة تعيا على القـــدر
ويـب الـسـماح وويب البأس لو سلما ... وحـــسـرة الـدين والدنيا على عمر
سقت ثرى الفضـــل والعباس هامية ... تعزى إليهم ســـمـــاحـاً لا إلى المطر
ثلاثة ما راى السعـــدان مثلهم ... واخبر ولو عززا في الحـــوت بالقمر
ثلاثة ما ارتقى النسران حيـــث رقوا ... وكل ما طار من نسر ولم يـــطـــر
ثـــلاثـــة كـذوات الدهر منذ نأوا ... عنى ، مضى الدهر لم يرجـع ولم يحر
ومر من كل شيء فـــيـــه أطيبه ... حتـــى الـتـمـتـع بالآصال والبكر
أيـــن الجـــلال الذى غضت مهابته ... قلوبنا وعيون الأنجم الـزهـــر
أين الإباء الـــذى أرســـوا قواعده ... عـــلـى دعـائم من عز ومن ظفر
أين الوفاء الذى أصـفـوا شـــرائعـه ... فلم يرد أحد منها عـــلـى كـــدر
كانوا رواسى أرض اللـــه ، منذ مضوا ... عـنـها استطارت بمن فيها ولم تقر
كانوا مصابيحها فمذ خبـــوا عثرت ... هذى الخليفـــة يـــا لَلّـــه في سدر
كـــانوا شـجى الدهر فاستهوتهم خدع ... مـنـه بأحلام عـــاد في خطى الحضر
ويلمه من طـــلـــوب الـثـأر مدركه ... منهم بأسد سراة فـــي الوغى صـبر
من لى ولا من بهم إن أظـلـمـت نوب ... ولم يكن ليلـــها يفضى إلى سحر

Marfat.com

من لى ولا من بهم إن عطلت سنن ... وأخفيت ألسن الآثار والسير
من لى ولا من بهم إن أطبقت محن ... ولم يكن وردها يدعو إلى صدر
على الفضائل إلا الصبر بعدهم ... سلام مرتقب للأجر منتظر
يرجو عسى وله فى أختها أمل ... والدهر ذو عقب شتى وذو غير
قرطت آذان من فيها بفاضحة ... على الحسان حصى الياقوت والدرر
سيارة في أقاصى الأرض قاطعة ... شقاشقاً هدرت في البدو والحضر
مطاعة الأمر في الألباب قاضية ... من المسامع ما لم يقض من وطر

Marfat.com

قصيدة أبى البقاء الرندى فى رثاء الأندلس[١]

وللهَ در الإمام العالم العلامة خاتمة أدباء الأندلس، أبى الطيب[٢] صالح ابن شريف الرندى [رحمه الله] إذ قال يندب بلاد الأندلس، ويبعث العزائم ويحركها من أهل الإسلام لنصرة الدين، وإنقاذ البلاد من يد الكافرين، ولسان الحال ينشده «لقد أسمعت لو ناديت حيا»

(البسيط)

لكل شيء إذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش إنسان

هى الأمور كما شاهدتها دول ... من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقى على أحد ... ولا يدوم على حال لها شان

يمزق الدهر حتما كل سابغة ... إذا نبت مشرفيات وخرصان[٣]

وينتضى كل سيف للفناء ولو ... كان ابن ذى يزن والغمد غمدان[٤]

أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان

وأين ما شاده شداد فى إرم ... وأين ما ساسه فى الفرس ساسان[٥]

وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان

أتى على الكل أمر لا مردّ له ... حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من ملك ومن ملك ... كما حكى عن خيال الطيف وسنان

دار الزمان على دارا وقاتله ... وأم كسرى فما آواه إيوان[٦]

---

١ – تخريجها: أزهار الرياض ٣/٤٧ ونفح الطيب ٦/٢٣٢.

٢ – ويروى: أبى البقاء كما فى النفح وقد مر.

٣ – المشرفيات: السيوف المنسوبة إلى مشارف اليمن والخرصان: الرماح وواحدها خرص.

٤ – غمدان اسم قصر كان لسيف بن ذى يزن من تبابعة اليمن.

٥ – ساسان: أسرة من الأسر المالكة لفارس.

٦– دارا: اسم ملك من ملوك الفرس وكسرى من ألقابهم وإيوان اسم قصرهم.

Marfat.com

كأنما الصعب لم يسهل له سبب ... يوما ولا ملك الدنيا سليمان

فجائع الدهر أنواع منوعة ... وللزمان مسرات وأحزان

وللحوادث سلوان يهونها ... وما لما حل بالإسلام سلوان

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحد وانهد ثهلان[1]

أصابها العين فى الإسلام فارتزئت[2] ... حتى خلت منه أقطار ويلدان

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان

وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان

وأين حمص[3] وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن

قواعد كن أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبكى الحنيفية البيضاء من أسف ... كما بكى لفراق الإلف هيمان[4]

على ديار من الإسلام خالية ... قد أسلمت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما ... فيهن إلا نواقيس وصلبان

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة ... حتى المنابر ترثى وهى عيدان

ياغافلا وله فى الدهر موعظة ... إن كنت فى سنة فالدهر يقظان

وماشياً مرحا يلهيه موطنه ... أبعد حمص تفر المرء أوطان

تلك المصيبة أنست ما تقدمها ... وما لها مع طول الدهر نسيان

---

١ – أحد وثهلان من أسماء الجبال فى بلاد العرب.

٢ – فارتزئت: أى انتقصت : من قولهم: ارتزأ الشيء أى انتقص.

٣ – حمص الأندلس: هى إشبيلية كانت عاصمة بنى عباد.

٤ – الإلف: المألوف المحبوب والهيمان: المحب الشديد الوجد.

يأيها الملك البيضاء رايته ... أدرك بسيفك أهل الكفر لا كانوا

ياراكبين عتاق الخيل ضامرة ... كأنها فى مجال السبق عقبان[1]

وحاملين سيوف الهند مرهفة ... كأنها فى ظلام النقع نيران

وراتعين وراء البحر فى دعة ... لهم بأوطانهم عز وسلطان

أعندكم نبأ من أهل أندلس ... فقد سرى بحديث القوم ركبان

كم يستغيث بنو المستضعفين وهم ... أسرى وقتلى فما يهتز إنسان

ما ذا التقاطع فى الإسلام بينكم ... وأنتم يا عباد الله إخوان

ألا نفوس أبيات لها همم ... أما على الخير أنصار وأعوان

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان

بالأمس كانوا ملوكا من منازلهم ... واليوم هم فى بلاد الكفر عبدان

فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان

ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان

يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان

وطفلة ما رأتها الشمس إذ برزت ... كأنما هى ياقوت ومرجان

يقودها العلج[2] للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان فى القلب إسلام وإيمان

---

١ – عقبان جمع عقاب من كواسر الطير قوى المخالب يطلق على الذكر والأنثى وأيضا يجمع أعقب.

٢ – العلج من الرجال: الشديد الجاف غير المثقف ويريد به النصرانى الأفرنجى.

Marfat.com

وقال بعضهم يرثي المدن الأندلسية [١]

الكامل

نادتك أندلس فلب نداءها ... واجعل طواغيت الصليب فداءها
صرحت بدعوتك العلية فأجبها ... من عاطفاتك ما يقى حوباءها [٢]
واشدد بجلبك جرد خيلك أزرها ... تردد على أعقابها أرزاءها
هى دارك القصوى أوت لإيالة [٣] ... ضمنت لها مع نصرها إيواءها
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى ... سبل الضراعة يسلكون سواءها
خلعت قلوبهم هناك عزاءها ... لما رأت أبصارهم ما ساءها
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها ... فهم الغداة يصابرون عناءها
وتنكرت لهم الليالى فاقتضت ... سراءها وقضتهم ضراءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا ... لم يضمن الفتح القريب بقاءها
رش أيها المولى الرحيم جناحها ... واعقد بأرشية النجاة [٤] رشاءها
أشفى على طرف الحياة ذماؤها ... فاستبق للدين الحنيف [٥] ذماءها
حاشاك أن تفنى حشاشتها وقد ... قصرت عليك نداءها ورجاءها
طافت بطائفة الهدى آمالها ... ترجو بيحى المرتضى إحياءها
واستشرفت أمصارها لإمارة ... عقدت لنصر المستضام لواءها
يا حسرتى لعقائل معقولة ... سئم الهدى نحو الضلال هداءها
إيه بلنسية وفى ذكراك ما ... يمرى الشؤن دماءها لا ماءها

---

١ - تخريج :نفح الطيب ٦/٢٨١.

٢ - الحوباء : النفس والجمع حوباوات.

٣ - الإيالة: قطعة من أرض دولة يحكمها وال من قبل الملك

٤ - الرشاء: الحبل والجمع أرشية ورش صيغة الأمر من راش يريش ريشاً أى قواه وأعانه وأصلح حاله.

٥ = الذماء والحشاشة بقية الروح.

Marfat.com

كيف السبيل إلى احتلال معاهد ... شب الأعاجم دونها هيجاءها[1]
وإلى ربا وأباطح لم تعر من ... حلل الربيع مصيفها وشتاءها
طاب المعرس والمقيل خلالها ... وتطلعت غرر المنى أثناءها
بأبى مدارس كالطلول دوارس ... نسخت نواقيس الصليب نداءها
ومصانع كسف الضلال صباحها ... فيخاله الرائى إليه مساءها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها ... وغدت ترجع نوحها وبكاءها
عجبا لأهل النار حلوا جنة ... منها تمد عليهم أفياءها
أملت لهم فتعجلوا ما أملوا ... أيامهم لا سوغوا إملاءها
بعداً لنفس أبصرت إسلامها ... فتوكفت عن حزبها إسلاءها[2]
أما العلوج فقد أجالوا حالها ... فمن المطيق علاجها وشفاءها
أهدى إليها بالمكاره جارح ... للكفر كره ماءها وهواءها
وكفى أسى أن الفواجع جمة ... فمتى يقاوم أسوها أسواءها[3]
هيهات فى نظر الإمارة كف ما ... تخشاه، ليت الشكر كان كفاءها
مولاى هاك معادة أنباءها ... لتنيل منك سعادة أبناءها
جرد ظباك لمحو آثار العدا ... تقتل ضراغمها وتسب ظباءها
واستدع طائفة الإمام لغزوها ... تسبق إلى أمثالها استدعاءها

---

١ – شب الهيجاء أى أثار الحرب.

٢ – بعداً : دعاء عليها وتوكفت: انحرفت وأعرضت، حزبها: شدتها والإسلاء من قولهم أسلى همه أى كشفه عنه.

٣ – أسواء جمع سواء وسوى وهو وسط الشئ ونظيره الأسو من قولهم أسا الشيء يأسوه أسواً أى عالجه وداواه والأسي الحزن والهم، يقول إن الأحزان كثيرة متشابهة فكيف علاجها ودواؤها.؟

Marfat.com

لا غـــرو أن يعـــزى الظهـــور لملة ... لـم يـبـــرحـــوا دون الورى ظهرا ءها[1]
إن الأعـــاجم لـــلأعارب نهـــبـــة ... مهما أمـــرت بغـــزوها أحيا ءهـــا
تالله لـــــو دبت لها دبـــابها ... لطوت عليها أرضـها وسـمـــا ءها
ولو استقـــلـــت عوفـــها لقتالـها ... لاستـقبلت بـالـمقربات عفـا ءها
أرسـل جوارحها تجنك بصيـــــدها ... صـــيدا ونـــادلـــطـــحنها أرحا ءها
هـــبوا لـــها يا معشر التوحيد قـــد ... آن الهبـــوب وأحـــــرزوا عليا ءها
إن الحفـــائظ من خـــلالكم التـــى ... لا يرهـــــب الـداعي بهـن خلا ءها
هى نكتة المحـــيا فـــحيـــهـــلا بها ... تجدوا سناها فـــى غد وســـنا ءهـــا
أولـــوا الجـــزيرة نصـــرة إن العدا ... تبغى على أقطـــارها استيـــــلا ءها
نقصـــت بأهل الشـــرك من أطرافها ... فاستحـفظوا بالمـــؤمنين نمـــا ءها
حاشاكـــمو أن تـــضمروا إلـــغا ءها ... فـــى أزمـــة أو تضمـــروا إقصا ءها
خـــوضوا إليها بحرها يصبح لكم ... رهـــواً وجـــوبوا نحوها بيـــدا ءها
وافى الصريخ مثـــويا يـــدعو لـــهـــا ... فلتجـــملوا قـصد الثواب ثـوا ءها
دار الجهاد فـــلا تفتـــكم ســـــاحة ... ســـاوت بها أحيـــاؤها شـــهدا ءها
هذى رسائلـــها تنـــاجـــى بالتى ... وقفت عليـــها ريثـــها ونجـــا ءها[2]
ولـــربما أنهت ســـوالب للنهـــى ... من كائنات حـــملت أنـــها ءهـــا[3]

---

١ – لا غرو: لاعجب ويعزى: ينسب والظهور: الغلبة والنصر والظهراء جمع ظهير وهو الغالب المنتصر يقول إن انتصار المسلمين لن يكون غريبا لأنهم لا يزالون غالبين دون غيرهم من الشعوب والأمم.

٢ – الريث: البطء والنجاء : السرعة

٣ – السوالب جمع سالبة وهى النواهى والأنهاء جمع نهى بكسر النون وفتحها وهو الموضع له حاجز يمنع الماء أن يفيض منه والجمع أنهاء والنهى بضم النون جمع النهية وهى العقل.

Marfat.com

وفـــدت على الدار العزيزة تجتنى آلاءهـــا أو تجـــتلى آراءهـــا
مستسقيات من غـــيوث غـــياثها ما وقعه يتـقدم استســـقاءهـــا
قد أمنـــت فى سبلها أهـــواءها إذ ســـوغت فـــى ظـــلها أهـــواءها
وبحســـبـــها أن الأميـــر المرتضى متـــرقب بفـــتـــوحـــها آنـــاءها
فى اللّـه مـــا ينـويه من إدراكها بكـــلأءة[1] يـــفـــدى أبـــى أكلاءها
بشرى لأنـــدلس تحـــب لـــقـــاءه ويـــحـــب فى ذات الإلـه لـــقاءها
صدق الـــرواة المخبـــرون بـــأنه يشفـــى ضـــناها أو يـــعيـــد رواءها
إن دوخ الـعـرب الـصعـاب مقادة وأبـــى علـــيها أن تطيع إبـــاءها
فـــكـــأن بفـــيلقـه العـرمرم فالقا هام الأعاجم ناسفاً أرجـــاء ها[2]
أنـــذرهم بالبطشة الكبـــرى فقد نذرت صـــوارمه الـــرقاق دماءها
لا يعدم الـــزمن انتـصار مؤيـــد تتســوغ الـــدنيا بـــه ســـراءها
ملك أمـــد النيـــرين بنـــوره وأفـــاده لألاؤه لألاءهـــا[3]
خضعت جبابرة المـــلـــوك لـــعـــزه ونـــضـت بكف صـــغارها خيلاءها
أبـقى أبـو حفص أمـــارته لـــه فســـمـا إلـــيـــها حاملا أعباءها
ســـل دعـوة المهدى عـــن آثاره تنبيـــك أن ظـباه قمـــن إزاءها
فغزا عداها واســـترق رقـــابها وحـمى حـــمـــاها واسترد بهاءها

---

١ = الكلأة: العربون والنسيئة والصون.

٢ = الفيلق العرمرم: الجيش العظيم والأرجاء جمع رجا وهى الناحية.

٣ = اللألاء: النجم أو البرق.

Marfat.com

قبضت يداه على البسيطة قبضة ... قادت له فى قده أمراءها
فعلى المشارق والمغارب ميسم ... لهداه شرف وسمه أسماءها
تطمو بتونسها بحار جيوشه ... فيزور زاخر موجها زوراءها
وسع الزمان فضاق عنه جلالة ... والأرض طرا ضنكها وفضاءها
ما أزمع الإيغال فى أكنافها ... إلا تصيد عزمه زعماءها
دانت له الدنيا وشم ملوكها ... فاحتل من رتب العلا شماءها[1]
ردت سعادته على أدراجها ... ليل الزمان ونهنهت غلواءها
إن يعتم الدول العزيزة بأسه ... فالآن يولى جوده إعطاءها
تقع الجلائل وهو راسٍ راسخ ... فيها يوقع للسعود جلاءها
كالطود فى عصف الرياح وقصفها ... لا رهوها يخشى ولا هوجاءها
سامى الذوائب فى أعز ذؤابة ... أعلت على قمم النجوم بناءها
بركت بكل محلة بركاته ... شفعا يبادر بذلها شفعاءها
كالغيث صب على البسيطة صوبه ... فسقى عمائرها وجاد قواءها
ينميه عبد الواحد الأرضى إلى ... عليا فتجنح بأسها وسخاءها
فى نبعة كرمت وطابت مغرساً ... وسمت وطالت نضرة نظراءها
ظهرت لمحتدها السماء وجاوزت ... لسرادقات فخارها جوزاءها

١- شم واحد ها أشم والانثى: شما وهى الرفيعة الشامخة

Marfat.com

فئـــة كرام لا تـكف عـن الوغى ... حـتى تـصرع حـــولها أكـــفـــاءها
وتكب فى نار القرى فوق الـــذرا ... من عـزة ألـــويـــهـــا وكـــبـــاءها
قد خلقوا الأيام طـيـب خـــلائق ... فـــثـنت إليهـم حـمدها وثنـــاءها
ينـــضـــون فـــى طـلـب أنفساً ... حبســـوا عـلى إحـــرازها أمضاءها
وإذا انتضوا يـوم الكريهة بيضهم ... أبصرت فيـــهم قطعها ومـــضاءها
لا عـذر عند المـكـرمات لهم متى ... لم تـســـتـبن لعفاتـهم عـــذراءها
قوم الأمير فـمـن يقـــوم بمـــالهم ... من صالحات أفـحمـــت شـعـراءها
صـفحا جميلا أيها الملك الـرضى ... عن مـحكمات لـم نطق إحصاءها
تقف القـــوافى دونهـــن حسـيرة ... لا عـيـها تخـفـــى ولا إعـيـاءها
فلعـل عـــلياكم تسـامـح راجـيـا ... إصـــغـاءها ومـؤملا إغـــضـاءها

Marfat.com

ميمية ابن العربي العقيلي في رثاء غرناطة

(البسيط)

مولي الملوك ملوك العرب والعجم رعياً لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم
حكم من الله حتم لا مرد له وهل مرد لحكم منه منحتم
وهى الليالي وقاك الله صولتها تصول حتى على الآساد فى الأجم
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول نمنا بها تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صيب يرمى بأفجع حتف من بهن رمى
فلا تنم تحت ظل الملك نومتنا وأى ملك بظل الملك لم ينم
يبكى عليه الذى قد كان يعرفه بأدمع مزجت أمواهها بدم
كذلك الدهر لم يبرح كما زعموا يشم بو الصغار الأنف ذا الشمم[٢]
وصل أواصر قد كانت لنا اشتبكت فالملك بين ملوك الأرض كالرحم
وابسط لنا الخلق المرجو باسطه واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخذنا بأقوال الوشاة ولم نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم[٣]
فما أطقنا دفاعا للقضاء وما أرادت أنفسنا ما حل من نقم
ولا ركوبا بإزعاج لسابحة فى زاخر بأكف الموج ملتطم

---

١ - تخريجها : قدرواها المقرى فى أزهار الرياض ١/١٧٢ ونفح الطيب ٦/٢٥٠

٢ - البو: جلد الحوار يحشى تبنا ونحوه لتعطف عليه أمه فتدر.

٣ - الوخم: الثقيل من الرجال.

والمرء ما لم يعنه الله أضيع من ... طفل تشكى بفقد الأم فى اليتم
وكل ما كان غير الله يحرسه ... فإن محروسه لحم على وضم [١]
كن كالسموءل إذ سار الهمام له ... فى جحفل كسواد الليل مرتكم [٢]
فلم يبع أدرع الكندى وهو يرى ... أن ابنه البر قد أشفى على الرجم [٣]
أو كالمعلى مع الضليل الأروع إذ ... أجاره من أعاريب ومن عجم [٤]
وصار يشكره شكراً يكافئ ما ... أسدى إليه من الآلاء والنعم
ولا تعاتب على أشياء قد قدرت ... وخط مسطورها في اللوح بالقلم
وعد عما مضي إذ لا ارتجاع له ... وعد أحرارنا في جملة الخدم
إيه حنانيك يابن الأكرمين على ... ضيف ألم بفاس غير محتشم
فأنت أنت ولولا أنت ما نهضت ... بنا إليها خطا الوخادة الرسم [٥]
رحماك يا راحما ينمى إلى رحما ... في النفس والأهل والأتباع والحشم
فكم مواقف صدق فى الجهاد لنا ... والخيل عالكة الأشداق للجم
والسيف يخضب بالمحمر من علق ... ما ابيض من سبل واسواد من لمم [٦]
ولا ترى صدر عضب غير منقصف ... ولا ترى متن لدن غير منحطم
حتى دهينا بدهيا لااقتدار بها ... سوي على الصون للأطفال والحرم
فقال من لم يشاهدها فربتما ... يخال جامحها يقتاد بالخطم [٧]

---

١ – الوضم : خوان القصاب أي ما يقطع عليه اللحم ويعده.
٢ – المحفل : الجيش العظيم والمرتكم : المتراكم
٣ – الرجم : جمع الرجمة وهى حجر توضع على القبر وقد أراد الشاعر القبر نفسه .
٤ – المعلي رجل من بنى تميم كان قد أجار الملك الضليل امرئ القيس
٥ – الوخاد الرسم هى الناقة السريع السير التى تؤثر في الأرض من شدة الوطء .
٦ – السبل : شعر اللحيةواللمم واحدها اللمة وهى شعر الرأس الذى يلم بالمنكبين .
٧ – الجامح: الفرس العانى من قولهم : جمح الفرس جموحا إذا عتا عن أمر صاحبه حتي غلبه، والخطم مقدمة الأنف والمنقار.

Marfat.com

هيهات لو زبنته الحرب كان بها ... أعيا يداً من يد جالت على زلم [١]
تاللّه ما أضمرت غشا ضمائرنا ... ولا طوت صحة منها علي سقم
لكن طلبنا من الأمر الذى طلبت ... ولاتنا قبلنا في الأعصر الدهم
فخاننا عنده الجد الخئون ومن ... تقعد به نكبات الدهر لم يقم
فاسود ما اخضر من عيش دهته عداً ... بالأسمر اللدن أو بالأبيض الخذم [٢]
وشتت البين شملا كان منتظما ... والبين أقطع للموصول من جلم [٣]
فرب مبني شديد قد أناخ به ... ركب البلا فقرته أدمع الديم
قمنا لديه أصيلاناً نسائله ... أعياجواباً وما بالربع من أرم
وما ظننا بأن نبقي إلى زمن ... نرى به غرر الأحباب كالحمم [٤]
لكن رضا بالقضا الجارى وإن طويت ... منا الضلوع على برح من الألم
لبيك يا من دعانا نحو حضرته ... دعاء إبراهم الحجاج للحرم
وأعط الأمن الذي رصت قواعده ... على أساس وفاء غير منهدم
خليفة اللّه وافاك العبيد فكن ... في كل فضل وطول عند ظنهم
وبين أسلافنا ما قد علمت به ... من اعتقاد بحكم الإرث مقتسم
وأنت منهم كأصل مطلع غصناً ... أو كالشراك الذي قد قد من أدم
وقد خطوت خطاهم في مآثرهم ... فلم يذموا إذن فيها ولم تذم [٥]

---

١ – زبنت الحرب الناس : صدمتهم ودفعتهم والزلم بفتح الزاي واللام السهام

٢ – الأسمر اللون : الرمح والأبيض الخذم : السيف القاطع.

٣ – الجلم المقراض والجمع جلام .

٤ – الغرر واحدها غرة وهي بياض الجبين والحمم واحدها حمة وهي الفحم الأسود.

٥ – لم تذم على صيغة المجهول لم تعب

Marfat.com

وصيت مولي الورى الشيخ الإمام غدا ... فـــى الناس أشهـــر مـن نار عـــلى علم

سلالة الأمـــــراء ، الجلـــــة الـكـــبرا ... ءِ، العلية الظـهـــراء ، القادة البهم [1]

بنو مرين ليوث فـــــي عـــريـــن أبـوا ... رؤيا قرين لـــهـــم فـــي البأس والكرم

النازلين من البيضاء وســـط حـمـــي ... أحمـــى مـــن الأبلق السامى ومن إرم

والجائسين بـــدهـــم الـــخيل كل ذرى ... والداعسين بسمر الخط كل كمى [2]

يـــريـــك فـــارسـهـــم إن هز عامله ... في مأزق بلظى الهـيـجـاء مضطرم

لـــيـثـا عـــلـى أجدل عار من أجنحة ... يسطو بأرقـــم لـــداغ بـــغير فم

في اللام يدغـــم مـــن عـســـاله ألفاً ... ولم نجـــد ألـــفـــاً أصـلاً بمدغم [3]

أهل الحفيظة يوم الـــروع يـــحـفـظهم ... من عصمة الله ما يربى على الـعـصم

بـــأس تطـير شرار مـنـه مـــحـــرقة ... لكـــل مـدرع بالحـــزم مـحتـــــزم

هـــم بـــطائـــفة التثليث قد فتكوا ... كـمـثـل ما يفتك السرحان بالغنم

وإن يلـــثـمـــهـــم يـوم الوغى رهج ... أنسوك ما ذكـــروه عـــن ذوى اللـــثم

تضئ آراؤهم فى كل مـــعـضلـة ... إضـــاءة الـــسـرج في داج من الظلم

هـــذا ولـــو مـــن حياء ذاب محتشم ... لـــــذاب منـــهم حيـــاء كل محتشم

طـــابـــت مـدائحهم إذ طابت أنفسهم ... فـــــاشتقت النسمات اسما من النسم

للّـــه درهـــم والســـحـب بـاخلة ... بدرهن عـلـــى الأنـعـام والـــنـعـم

---

١ – الظهراء جمع ظهير وهو نصير وغالب والقادة البهم الأبطال الشجعان

٢ – الجائس المغوار الداعس الطاعن.

٣ – عامل الرمح صدره والمأزق مكان الحرب الضيق واللظي النار الملتهب

٤ – اللأم واللأمة: الدرع والعسال الرمح اللدن .

Marfat.com

بحيث الأفق يرى من لون حمرته ... كالشيب يخضب بالحنا، والكتم[1]

هناك تنهل أيديهم بصوب حيا ... يحيى بالأجداث ما فيها من الرمم

وإن بيتي زياد طالما ذكرا ... إذا ألمت أحاديث بذكرهم[2]

« أحلام عاد وأجساد مطهرة ... من المعقة والآفات والإثم

يرون حقا عليهم حفظ جارهم ... فلم يضر نازل فيهم ولم يضم

فروعه[3] بالدواهي لا يراع ولا ... يغم منها بما يعرو من الغمم

هم البحار سماحا غير أن بها ... ما قد أناف على الأطواد من همم

وليس يسلم من حتف محاربهم ... حتى يكون إليهم ملقى السلم

كم فيهم من أمير أوحد ندس ... يقرطس الغرض المقصود بالفهم[4]

ولا كسبط أبي حسون من حسنت ... أمداحه حسن ما فيه من الشيم

هذاكم ابن أبي زكري الهمام فقل ... في أصله المنتقي من مجده العمم[5]

خليفة الله حقا في خليفته ... كنائب ناب في حكم عن الحكم

مهما تنر قسمات منه نيرة ... تنل بنان له ما جل من نعم[6]

فوجهه بدجى وكفه بجدا ... أبهى من الزهر أو أندى من الديم[7]

وفضله وله الفضل المبين جري ... كجري الأمثال في الأقطار والأمم

وجوده المتوالى للبري ما ... وجوده بينهما طراً بمنهدم

---

١ – الكتم بفتح الكاف والتاء نبت يستعمل في خضاب الشعر.

٢ – وزياد هو نابغة الذبياني والمعقة العقوق وقبل بيت الذبياني هذا:

هم الملوك وأبناء الملوك لهم ... فضل على الناس في اللآواء والنعم

٣ – الروع موضع الفزع من القلب.

٤ – الندس القطن ويقرطس الغرض أى يصيبه ٥ – العمم التام

٦ – ويروى مهما نشم نسمات « وتنل بنازلة «وقسمات الوجه محاسنه

٧ – الدجى الظلمة والجدا العطاء والديم جمع ديمة وهى مطر متسلسل يدوم أياماً.

Marfat.com

إذا ابتغت نعما منه العفاة له [١] لم يسمعوا كلمة منه سوى نعم
وإن يعبس زمان في وجوههم لم يبصروا غير وجه منه مبتسم
وجه تبين سمات المكرمات به كما تبين سمات الصدق في الكلم
وراحة لم تزل في كل آونة في نيلها راحة الشاكى من العدم
للّه ما التزمته من نوافله أيام لا فرض مفروض بملتزم
أنسى الخلائف في حلم وفي شرف وفي سخاء وفي علم وفي فهم
فجاز معتمداً منهم ومعتضداً وامتاز عن قائم منهم ومعتصم [٢]
وناصر الدين في الإقبال فاق وفي محبة العلم أزرى بابنه الحكم [٣]
أفعال [٤] أعدائه معتلة أبدا متى يرم جزمها بالحذف تنجزم
فويل أهل الفلا من حية ذكر للمتلئب اللهام المجر ملتقم [٥]
راموا عداوة من إن شاء غادرهم مثل الأحاديث عن عاد وعن إرم
فسوف يأكلهم من جيشه لجب بكل قرم إلى لحمانهم قرم [٦]
وإن الأعراب إذ ساروا لغابته لسائرون إلى لقم على لقم
وهم كما قاله ماض: أرى قدمي بسعيه نحو حتفي قد أراق دمي
فقل إذن للمناوى الناوي ألان ألأذى يا غر غرك ما أبصرت في الحلم
له صوارم لو ناجتك ألسنها لبشرتك بعمر منك منصرم

---

١ – العفاة طلاب المعروف السائلون أو الضيوف النازلون .

٢ – تلك ألقاب ملكية وخليفية عامة لا يريد بها بالذات أحدا.

٣ – يريد الناصر لدين الله عبد الرحمن الأموي وابنه الحكم المستنصر.

٤ – وفي كلمة أفعال وغيرها من المصطلحات الصرفية هنا تورية.

٥ – الملتئب واللهام والمجر كلها بمعني الجيش العظيم الجرار.

٦ – اللجب الجيش العظيم القرم بفتح القاف وسكون الراء سيد القوم والقرم بفتح القاف وكسر الراء شديد الشهوة لأكل اللحم.

وإن روحك عن قرب سيقبضه ... قبض المسلم ما قد حاز من سلم
فهو الذي ما له ند يشابهه ... من كل متصف بالدهى متسم
يدبر الأمر تدبيراً يخلصه ... مما عسى أن يرى فيه من الوهم
ويبصر الغيب لحظ الذهن منه إذا ... تعمى عن إدراكه ألحاظ كل عم
وينعم النظر المفضي بناظره ... لصوب وجه صواب واضح اللقم [1]
ذو منطق لم تزل تجلو نتائجه ... عن مبطل بخصام المبطل الخصم
ومسمع ليس يصغى للوشاة فلم ... ينفق لديه الذى عنهم إليه نمى
فعقله لا توازيه العقول وهل ... يوازن الطود ما قد طال من أكم
إيه جميع الورى من بدو أو حضر ... نداء مرتبط بالنصح مرتسم
شدوا وجدوا ولا تعنوا ولا تهنوا ... قد لفها الليل بالسواقة الحطم [2]
هذا الأمير [3] المريني السعيد له ... سعد يؤيده في كل مصطدم
قد أقسمت أنه المنصور ألسنة ... من نخبة الأوليا مبرورة القسم
فشيعوه ووالوه تروا عجبا ... وتظفروا معه بالأجر والغنم
والحمد لله إذ أبقى خلافته ... كهفا لنا من يخيم فيه لم يرم
حرز حريز وعز قائم وندى ... غمر دراك بلا من ولا سأم
دامت ودام لها سعد يساعدها ... في كل مبتدإ منه ومختتم

---

١ - أنعم النظر : دققه - واللقم وسط الطريق .

٢ - الحطم الشديد السوق .

٣ - وهو الشيخ الوطاسي حاكم فاس المغرب الذى يمدحه العقيلي .

Marfat.com

فـــاللهَ - عز اسمه - قد زانها بحلي ... من غرأمداحه كـــالـــدر فـي الـنـــظـــم
الـــواهـــب الألف بعد الألف من ذهب ... كـــالجـــمـــر يلمع في مستوقد الضرم
والفاعـــل الـــفـــعـــل لم يهمم به أحد ... والـــقـــائـــل القول فيه حكمة الحكم
ذاكم هو الـــشيخ فـــاعـــجب إنه هرم ... جـــواد وحـــاشاه أن يعزي إلي هرم
وحسبنا أن أيـــديـــنـــا به اعتصمت ... من حـــبـــلـــه وثيـــق غير منفصم
فـــمـــا مـــحـــالـــفه يوما بمضطهد ... ولا مـــؤالـــفـــه يـــومـــاً بمهتضم
ولا مـــوافيه في جـــهـــد بمـــطرح ... ولا مـــصـــافـــيـــه فـــي ود بمتهم
ولا محـــيـــا مـــحـــييه بمنكسف ... ولا رجـــاء مـــرجـــيـــه بمنخرم[1]
ومـــا تكـــرمـــه سـراً بمـــنـــكشف ... ولا تـــنـــكـــره جـــهـــراً بمـــكتتم
ولـــيـــس لامـــح مـــرآه بمـــكتئب ... وليس راضـــع جـــدواه بمنفطم
ولا مـقـبـل يمنـــاه الـــكريمة في ... محل ممتهن بـــل دســـت[2] مـــحـــترم
ومـا وســـيـــلـــتنا العظمي إليه سوي ... مـا ليس ينكر مـــا فـــيـــها من العظم
وإنـمـا هـــي ومـا أدراك مـا هـى من ... وسيلة ردها أدهـــى مـــن الـــرضم[3]
نبينا المصطفـي الـهادي بخير هدى ... مـــحـمـــد خـــيـــر خلق الله كلهم
داعي الوري من أولي خيم وأهل قري ... إلـــى طـــريق رشاد لاحـــب أمم
عليـــه منـا صلاة اللهَ مـا ذكرت ... «أمـــن تـــذكر جـيران بـذي سلم»[4]
ومـا تـشـفـع فيها بالشفيع لـــه ... دخيل حـــرمته العلـــياء في الحرم

---

١ - المنخرم من الانخرام وهو الانشقاق والانقطاع.
٢ - كذا في المراجع ولعلها كلمة فارسية ومعناها اليد وهنا ترادف المحل والمكانة.
٣ - الرضم جمع رضمة وهي الصخرة العظيمة.
٤ - الشطر الثاني من مطلع البردة للبوصيري رحمه الله .

ومن رثاء غرناطة قول الشيخ الدقون

الحمد لله على كل حال، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله خير آل .أما بعد :

فيقول خديم أهل الله تعالى، عبيد الله أحمد بن محمد الأندلسى، الشهير بالدقون، لطف الله به بمنه وكرمه:

إنه لما غابت شمس الجزيرة الخضراء، بأخذ الحمراء؛ قرعت باب الندبة، لما تقدم من الصحبة؛ فقلت أبياتا صدرت من قلب كئيب، مبكية كل لبيب أريب؛ وسميتها بالموعظة الغراء، بأخذ الحمراء، مبيحا لمن رغب فيها، ولم يرغب عنها، أو استحسن شيئا منها، أن يحدث بها عنى؛ وذلك بعد إتقان لفظها وحفظها، وفهم وعظها ولحظها؛ وإن كنت لا أحسن أن أقول، وربما أعزى بها إلى الفضول؛ لكنى لا أعدم المثيل، وفى مثل هذا قيل :[1]

ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلا أن تعد معايبه

والله حسبى وعدتى،وهو مقيل عثرتى ، وهذا مطلع صباحها، ومنبع افتتاحها[2] :

(البسيط)

أمنت من عكس آمال وأحوال وعشت ما بين أعمام وأخوال

ولا ابتليت بما فى القلب من نكد فالجسم مشتغل من غير أشغال[3]

وكيف لا وبقاع الدين خالية من أرض أندلس من أجل أهوال

عمت فغمت قلوب المسلمين فيا للمسلمين من أعداء وأنكال

جاشت بها من جيوش الكفر ما درست بهم معالم أخبار وأقيال[4]

أهل الشجاعة أهل العلم أهل تقى أهل النفاسة فى قول وأفعال

---

٢ - تخريج: أزهار الرياض ١/١٠٥

٣ - النكد : الشحيح، القليل النفع المشئوم.

٤ - الأقيال جمع قيل وهو الملك ولقب به ملوك اليمن.

Marfat.com

عنهم وفيهم أحاديث النبى بدت ... وهم معاقل قول الله للتالى
رهبان ليل وفرسان النهار فمن ... يلمم بساحتهم يظفر بآمال
لا عيب فيهم سوى أن المضاف لهم ... يسلو عن أهل وأوطان وأموال[1]
فهل ترى بعد هذا النفس سائلة ... وكيف تسأل عن وصف وعن حال
تالله لا زال ما فى القلب من أسف ... ولو أكون حليف المنزل الخالى
أو يفتح الله فى نصر يمن به ... فالله باق يقى من كل محتال
قد رام إطفاء نور الله مجتهدا ... وياذلا كل ما قد حاز من مال
سطا بجيش كموج البحر فى عُدد ... نعم، وفى عَدد من رهط أبطال
مؤيدا باجتماع المصر يتبعه ... شر الخلائق مسرورا بإقبال
يسبى المسامع بالأنفاض مشبهة ... وقع الصواعق فى هد وزلزال[2]
يبنى ليهدم ما الإسلام شيده ... والوصف يعجز من يدعى بقلقال[3]
فهو المقاتل فى الأبراج منتقل ... إلف النحوس وتغيير وترحال
فاستوطن المرج لا ينوى الرحيل ولا ... يخشى المغيث بسهل أو بأجبال
والمسلمون من الأضغان قد ملئت ... قلوبهم وأبوا تشديد أخلال[4]
والحق مختلف والحق مؤتلف ... والكل منصر عن نصر أبطال
وهم لديه كطير وهو ينتفه ... والطير يرجو البقا مع كيد قتال

---

١ – المضاف: الضيف النازل.

٢ – الأنفاض جمع نفض وهو ما تساقط حول الشجر من الورق والثمر.

٣ – القلقال: الفصيح اللسن.

٤ – الأخلال جمع الخلل وهى الثغرة.

إذا تجـــرد مـــن ريـــش يـــطـــير به ... أضحـــى يـــدافـع عن روح بأوصال[١]
ســـدوا مســـالك أرزاق ومـنـفعة ... كـدودة الـقـز فـي نـســج لسربال
ثم استغاثوا: ألا فـــرســـان عـــادية ... قال الصدى: لـــســـت ذا رمـــح ونبال
والصيف ضيعت ما أملت من لبن ... ففارق الجبح مـــن تـــدخيـــن نـحال[٢]
وارحل بنحلك نحو الـــغـــرب فـي كرم ... من قـــبـــل وضـــعـــك فى قيد وأغلال
فاستمكن الرعب فى الأكـباد واتفقت ... بعد اختـــــلاف عـــلـى تـــأمين أرذال
واحتل غرناطة الـــغـــراء قـــد عـدمت ... حب الحصيـــــد ونـــصـــر الله والآل[٣]
كأنها الشمس فى أفق العلى كسفت ... فهل على طـــــلل تـــرمى بأبطال ؟
وهل تعود لـــيـــال قـــد سـلـفـن بها ... ونحن لا نـــشـــتكى تـــنـــكيد ضلال ؟
وهل يعود لها الدين الـــذى أنـــســـت ... به وقد أيِست من فتـح أبـــــدال
فأصبحـوا لا تـــــرى إلا مســـاكنهم ... كمثل عـاد ومـــا عـــاد بأشكال
قد فرقـــوا كـــســـبـــا في كل منزلة ... وقد سبا عـــــده مـــن أيـد أو عال[٤]
فلا المساجد بـالـــتوحـيـد عـامرة ... إذا عمرها بناقـــــوس وتمـــثـــال
ولا المنابـر للـــوعـــاظ بـارزة ... للأمر والـــنـهـى أو تـــذكير آجـال
ولا المـــكـــاتـــب بالصبيان آنسة ... تتلو الـــقـــرآن بـــــأسحار وآصال
آه على الـديـن والدنيـا ومـــا نفعت ... آه إذا صـــدرت مـــن قلب بطال[٥]

---

١ – الأوصال جمع وصل أى المفاصل أو مجتمع العظام وكل عظم على حدة لا يكسر ولا يوصل به غيره

٢ – من قولهم: الصيف ضيعت اللبن، والجبح خلية النحل والنحال العسال.

٣ – من تقاليد المغاربة أنهم يستنصرون بالأبدال والأولياء عندما تشتد الخطوب والأزمات.

٤ – الأوعال : جمع وعل وهو تيس الجبل.

٥ – من البطالة وهى التعطل عن العمل.

Marfat.com

إنـــا إلـــى اللـــه والـــرجعى له وبه ... تعـلـــق الـــقـلب فى تصحيح إعلال
وكان ما كـــان والألـــطـــاف شاملة ... لاحتبـــنـــقـــلتنـــســـوان وأطفال
فلنكرم الآن مـن يـــنـــزل بمـــنـزلنا ... فالـــدهر ذو دول فـــاسمع لأمـــثـــال
وإذ ولا قـــــدرة تـــدنى المنى فلهم ... حق الجـــوار ولا تـــوصـف بإهمال
نلقاهم ولنا بـــشـــر ومـــعـــذرة ... ورحمة يا حـــمـاة الـــعـــم والخال
ولا نـــذد عـــن ورود الحوض وارده ... ولا نـــدع قـــول ذى نـصح وإجمال
إخوانكـــم رفـــعوا أيدى الضراعة مع ... كـســـر الـــقـلوب فلا يلقوا بإخمال
وقل لوال تلطف فـــى مـــغارمهم ... يلطف بـــك اللـــه إذ تـــدعى لأحمال
هذا النذير جـــهارا جـــاء ينذرنا ... والأذن فـــى صمم عـــن قـيل أو قال
ونحن فى غفـــلة عـــما يراد بنا ... نمـــشـــى عـــلى مهلة من طول إمهال
يا أهل فاس أما فـــى الـغير موعظة ... إن الـسـعـــيد لمـــوعوظ بأمثال
فقل تعـــالوا إلـــى نـــصح وتذكرة ... فالأمر جـد فـــلا تصحب لمكسال
كيف الحياة إذا الحـــيـــات قد نفحت ... على الســـواحـــل أو همت بإرسال
ولا سبيل إلـــى التـــريـاق غير تقى ... والحزم فى سعة من قـبـل إعجال
والأخذ بالجد فى جمع القلـــوب على ... بذل النصيحـــة أو إبـــراء أدخال
والزهد فى هـــذه الـــدنيـــا وزخرفها ... والأمـــر بالعرف مع تحسين مقوال

Marfat.com

ولا نرم فى أمان الروم منزلة خوفاً على الدين أو بعداً من انذال
فمن يبت فى أمان الكلب منتصبا لسخط مولى ولا عذر بأثقال
واربأ بنفسك عن أرض تهان بها فحيثما كنت لا تخشى من اقلال
فالموت عندي خير من حياة فتى قد اكتسى بعد عز ثوب إذلال
والهجرة الآن قد عادت كما سبقت فافهم تفاصيل أقوالِ وإجمال
واحتل بذهنك ولتسمع نصائح من قد طب من حب لم يوصف بمحتال[1]
فى صدر سبع الكلب على التسعين[2] زائدة شمس الجزيرة غابت بعد إكمال
وبلغ الكلب ما قد شاء من أرب إذ لم يجد ذائدا عن ديننا الغالى
ليقضى الله أمراً كان قدره والأمر لله في قول وأفعال
وقد وعظت ولو أسمعت لانتشرت سحائب الدمع لم تقلع عن انزال
فليشتغل كل مسكين بمهجته والله يحفظنا من كل مهوال
ثم الصلاة على المختار سيدنا محمد والرضا عن آل أو تالى

---

١ – ومن أمثالهم :اصنعه صنعة من طب لمن حب أي صنعة حاذق لمن يحبه.

٢ – إشارة إلي اليوم الذى فيه سقطت غرناطة وتم جلاء العرب عن الأندلس.

Marfat.com

وقال بعضهم يندب المسلمين المضطهدين بعد سقوط غرناطة ويستغيث بالسلطان العثماني أمير المؤمنين بايزيد خان

ومما كتبه بعض أهل الجزيرة بعد استيلاء الكفر على جميعها للسلطان با يزيد خان العثماني ، رحمه الله ، ما نصه بعد سطر الافتتاح [1]

سلام كريم دائم متجدد ... أخص به مولاى خير خليفة
سلام على مولاى ذي المجد والعلا ... ومن ألبس الكفار ثوب المذلة
سلام على من وسع اللّه ملكه ... وأيده بالنصر فى كل وجهة
سلام على مولاى من دار ملكه ... قسنطينة أكرم بها من مدينة
سلام على من زين الله ملكه ... بجند وأتراك من أهل الرعاية
سلام عليكم شرف الله قدركم ... وزادكم ملكاً على كل ملة
سلام على القاضى ومن كان مثله ... من العلماء الأكرمين الأجلة
سلام على أهل الديانة والتقى ... ومن كان ذا رأى من أهل المشورة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا ... بأندلس بالغرب فى أرض غربة
أحاط بهم بحر من الروم زاخر ... وبحر عميق ذو ظلام ولجة
سلام عليكم من عبيد أصابهم ... مصاب عظيم يا لها من مصيبة

١ - تخريجها : قد رواها المقري في أزهار الرياض ١/١١٠

Marfat.com

سلام عليكم من شيوخ تمزقت ... شيوبهم بالنتف من بعد عزة
سلام عليكم من وجوه تكشفت ... على جملة الأعلاج من بعد سترة
سلام عليكم من بنات عواتق ... يسوقهم اللباط قهراً لخلوة[1]
سلام عليكم من عجائز أكرهت ... على أكل خنزير ولحم لجيفة
نقبل نحن الكل أرض بساطكم ... وندعو لكم بالخير في كل ساعة
أدام الإله ملككم وحياتكم ... وعافاكم من كل سوء ومحنة
وأيدكم بالنصر والظفر بالعدا ... وأسكنكم دار الرضا والكرامة
شكونا لكم مولاى ما قد أصابنا ... من الضر والبلوى وعظم الرزية
غدرنا ونصرنا وبدلدیننا ... ظلمنا وعوملنا بكل قبيحة
وكنا على دين النبى محمد ... نقاتل عمال الصليب بنية
ونلقى أموراً في الجهاد عظيمة ... بقتل وأسر ثم جوع وقلة
فجاءت علينا الروم من كل جانب ... بسيل عظيم جملة بعد جملة
ومالوا علينا كالجراد بجمعهم ... بجد وعزم من خيول وعدة
فكنا بطول الدهر نلقي جموعهم ... فنقتل فيها فرقة بعد فرقة
وفرسانهم تزداد في كل ساعة ... وفرساننا فى حال نقص وقلة
فلما ضعفنا خيموا في بلادنا ... ومالوا علينا بلدة بعد بلدة

١ – اللباط : رجال الدين المسيحى وفيه إشارة إلى اضطهاد المسلمين على أيدى محاكم التفتيش ...

Marfat.com

وجاءوا بأنفاط عظام كثيرة ... تهدم أسوار البلاد المنيعة[1]
وشدوا عليها في الحصار بقوة ... شهوراً وأياماً بأبجد وعزمة
فلما تفانت خيلنا ورجالنا ... ولم نر من إخواننا من إغاثة
وقلت لنا الأقوات واشتد حالنا ... أطعناهم بالكره خوفاً لفضيحة
وخوفاً على أبنائنا وبناتنا ... من أن يؤسروا أو يقتلوا شر قتلة
على أن نكون مثل من كان قبلنا ... من الدجن من أهل البلاد القديمة
ونبقي على آذاننا وصلاتنا ... ولا نتركن شيئاً من أمر الشريعة
ومن شاء منا البحر جاز مؤمنا ... بما شاء من مال إلى أرض عدوة
إلى غير ذاك من شروط كثيرة ... تزيد على الخمسين شرطاً بخمسة
فقال لنا سلطانهم وكبيرهم ... لكم ما شرطتم كاملاً بالزيادة
وأبدي لنا كتباً بعهد وموثق ... وقال لنا هذا أماني وذمتي
فكونوا على أموالكم ودياركم ... كما كنتم من قبل دون أذية
فلما دخلنا تحت عقد ذمامهم ... بدا غدرهم فينا بنقض العزيمة
وخان عهوداً كان قد غرنا بها ... ونصرنا كرهاً بعنف وسطوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف ... وخلطها بالزبل أو بالنجاسة[2]
وكل كتاب كان في أمر ديننا ... ففي النار ألقوه بهزء وحقرة

---

١ – أنفاط : أسلحة الهدم والتدمير كالمدافع والمناجق .

٢ – الزبل : بكسر الزاي وسكون الباء : السرجين وما أشبه ذلك .

ولم يتركوا فيها كتاباً لمسلم ... ولا مصحفاً يخلى به للقراءة
ومن صام أو صلى ويعلم حاله ... ففي النار يلقوه على كل حالة
ومن لم يجئ منا لموضع كفرهم ... يعاقبه اللباط شر العقوبة
ويلطم خديه ويأخذ ماله ... ويجعله في السجن في سوء حالة
وفي رمضان يفسدون صيامنا ... بأكل وشرب مرة بعد مرة
وقد أمرونا أن نسب نبينا ... ولا نذكرنه في رخاء وشدة
وقد سمعوا قوماً يغنون باسمه ... فأدركهم منهم أليم المضرة
وعاقبهم حكامهم وولاتهم ... بضرب وتغريم وسجن وذلة
ومن جاء الموت ولم يحضر الذى ... يذكرهم لم يدفنوه بحيلة
ويترك في زبل طريحاً مجدلا ... كمثل حمار ميت أو بهيمة
إلى غير هذا من أمور كثيرة ... قباح وأفعال غزار ردية
وقد بدلت أسماؤنا وتحولت ... بغير رضاً منا وغير إرادة
فآهاً على تبديل دين محمد ... بدين كلاب الروم شر البرية
وآهاً على أسمائنا حين بدلت ... بأسماء أعلاج من أهل الغباوة
وآها على أبنائنا وبناتنا ... يروحون للباط في كل غدوة
يعلمهم كفراً وزوراً وفرية ... ولا يقدروا أن يمنعوهم بحيلة

وآهــاً عــلــى تــلك المساجد سورت ... مــزابل للكـفــار بـعـد الطهارة
وآهــاً عــلــى تــلك الصوامع علقت ... نواقــيــســهــم فــيـها نظير الشهادة
وآهــاً عــلــى تــلك الـبلاد وحسنها ... لقد أظلمــت بــالـكفر أعظم ظلمة
وصارت لعباد الصــلــيــب معاقلا ... وقد أمــنــوا فيها وقوع الإغارة
وصرنا عبيداً لا أســارى فـنـفتدى ... ولا مــسـلـمين نــطـقـهم بالشهادة
فلو أبــصــرت عيناك وما صار حالنا ... إليــه لجـادت بالدمــوع الغزيرة
فيا ويلنــا، يــا بؤس ما قد أصابنا ... من الـضـر والــبــلوى وثوب المذلة
سألناك يــا مــولاى باللّــه ربنا ... وبالمــصطـفـى المـختار خير البرية
وبالــسادة الأخيــار آل مــحـمد ... وأصـحابــه أكـرم بهم من صحابة
وبالسيـد الــعــبــاس عــم نبينا ... وشيــبـتــه البـيضاء أفضل شيبة
وبالــصــالحين الـعـارفين بربهم ... وكل ولــى فــاضــل ذى كرامة
عسى تنـظـروا فينا وفيما أصابنا ... لــعـل إلــه الــعرش يأتى برحمة
فقولك مــســمــوع وأمــرك نافذ ... وما قلت مـن شيء يكون بسرعة
ودين النـصارى أصله تحت حكمكم ... مــن ثم يــأتيهــم إلى كل كورة
فباللّه يـا مــولاى مـنوا بفضلكم ... علينــا بــرأى أو كـلام بحجة
فأنتم أولـو الإفضال والمجد والعلا ... وغـوث عــبــاد الله فـى كل آفة

Marfat.com

فسل بابهم [١] أعنى المقيم برومة ... بماذا أجازوا الغدر بعد الأمانة؟
وما لهم مالوا علينا بغدرهم ... بغير أذى منا وغير جريمة
وجنسهم المغلوب فى حفظ ديننا ... وأمن ملوك ذى وفاء أجلة
ولم يخرجوا من دينهم وديارهم ... ولا نالهم غدر ولا هتك حرمة
ومن يعط عهداً ثم يغدر بعهده ... فذاك حرام الفعل فى كل ملة
ولاسيما عند الملوك فإنه ... قبيح شنيع لا يجوز بوجهة
وقد بلغ المكتوب منكم إليهم ... فلم يعلموا منه جميعاً بكلمة
وما زادهم إلا اعتداء وجرأة ... علينا وإقداماً بكل مساءة
وقد بلغت أرسال مصر إليهم ... وما نالهم غدر ولا هتك حرمة [٢]
وقالوا لتلك الرسل عنا بأننا ... رضينا بدين الكفر من غير قهرة
وساقوا عقود الزور ممن أطاعهم ... ووالله ما نرضى بتلك الشهادة
لقد كذبوا فى قولهم وكلامهم ... علينا بهذا القول أكبر فرية
ولكن خوف القتل والحرق ردنا ... نقول كما قالوه من غير نية
ودين رسول الله ما زال عندنا ... وتوحيدنا لله فى كل لحظة
ووالله ما نرضى بتبديل ديننا ... ولا بالذى قالوا من أمر الثلاثة
وإن زعموا أنا رضينا بدينهم ... بغير أذى منهم لنا ومساءة

---

١ – بابهم : أي بابا المسيحيين ويريد به البابا رئيس الدين المسيحي في الفاتيكان .

٢ – أرسال مصر : أي رسلها جمع رسول ولعل مصر كانت قد أرسلت لهم مساعدة في تلك الساعة الحرجة .

Marfat.com

فسل وحرا عن أهلها كيف أصبحوا ... أسارى وقتلى تحت ذل ومهنة
وسل بلفيقا عن قضية أمرها ... لقد مزقوا بالسيف من بعد حسرة
ومنيافة بالسيف مزق أهلها ... كذا فعلوا أيضاً بأهل البشرة
وأندرش بالنار أحرق أهلها ... بجامعهم صاروا جميعا كفحمة[1]

فها نحن يا مولاى نشكو إليكم ... فهذا الذى نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا ... كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
وإلا فيجلونا جميعاً من أرضهم ... بأموالنا للغرب دار الأحبة
فإجلاؤنا خير لنا من مقامنا ... على الكفر فى عز على غير ملة
فهذا الذى نرجوه من عز جاهكم ... ومن عندكم تقضى لنا كل حاجة
ومن عندكم نرجو زوال كروبنا ... وما نالنا من سوء حال وذلة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا ... وعزتكم تعلو على كل عزة
فنسأل مولانا دوام حياتكم ... بملك وعز فى سرور ونعمة
وتهدين أوطان ونصر على العدا ... وكثرة أجناد ومال وثروة
وثم سلام اللّه تتلوه رحمة ... عليكم مدى الأيام فى كل ساعة

---

١ – وحرا وبلفيقا ومنيافة والبشرة وأندرش : أسماء مدن وقرى كانت لمملكة غرناطة .

Marfat.com

طبع على نفقة النّور فيبركس فيصل آباد

Marfat.com

طبع على نفقة النّور فيبركس فيصل آباد

Marfat.com

بمناسبة ذكرى الأندلس الإسلاميّة

رثاء الأندلس

جديد

على

ألسنة شعرائها

اختيار وتحقيق وتقديم

الدكتور ظهور أحمد أظهر

الأستاذ بقسم اللغة العربيّة - جامعة پنجاب

الطبعة الاولى

١٩٩٢م — ١٤٠٢هـ

من مطبوعات المجمع العربي الباكستاني

Marfat.com